Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES

GIVEN BY

THE AUTHOR

كل عام وانتم بخير

محمود تيمور

MAHMOUD TEYMOUR
6, Rue Emir Hussein
ZAMALEK
CAIRE . EGYPTE .

دار المعارف بمصر

هدية لمكتبة
Colombia University
New York
مع أطيب تمنيات المؤلف
محمود تيمور
Mahmoud Teymour
1951

كل عام وأنتم بخير
وقصص أخرى

MAHMOUD TEYMOUR
6, Rue Emir Hussein
ZAMALEK
CAIRE, EGYPTE.

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى — سنة ١٩٥٠

محمود تيمور

كل عام وأنتم بخير

وقصص أخرى

ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

893.79
T1363

Author's Gift

كل عام وأنتم بخير

برحتُ مَشرَب « نيوبار » بميدان « الأوبرا » ، مَشرَبى المفضَّل الذى أزجى فيه أكبر وقتى فى الضحَوَات والأماسىّ .

برحته فى مَدْخل الليل إلى دارى ، أتأهب للجلوس إلى المذياع ، كيما أستمع إلى الحفلة الساهرة الكبرى التى تقام فى مسرح حديقة « الأزبكية » ، مُشْتَرِكَةً فى إحيائها كواكبُ « مصر » فى الغناء .

ما بُكُورى فى العود إلى منزلى ، والحفلةُ لا تبدأ إلا فى منتصَف العاشرة ؟ وهل تتطلب الأُهبة للسماع هذا الوقت المديد ؟ إنها بضع لحظات أُدير فيها مفاتيح المذياع ، فتنساب الأنغام فى انسجام !

لم أجد فى نفسى من جواب عن سؤالى ، فقد ألفيتُنى أتخلى عن اللعب بالنَّرْد فى حَلْقة الصحاب ، تاركا ورائى سواطع الأضواء ، زاهداً فيمن كنت آنَس إليهم من الباعة الجَوَّالين فى المشرب ، أساومهم وأماكسهم وأخرج ظافراً ببعض السلع ، لِقاء ثمن بخس .

نفضتُ يدى من هذا كله ، وعَجَّلت بالانصراف ، آخُذُ الطريق إلى الدار ، على حين أن الليلة ليلة العيد ، ومن شأنها أن تثير البهجة وتبعث على الانشراح ، ولكنى لا أشعر بابتهاج ، بل أشعر بتذمر وتضجر .

« كل عام وأنتم بخير » !

شَدَّ ما كَلَّ لسانى اليومَ من تَرداد تلك العبارة الشائعة المبتذَلة ، بل شَدَّ ما سَئِمَ سمعى وَقْعَها .

لماذا أستشعر أنى مستغرق فى الشواغل ، وأن على كتفى أعباء من جِسامِ المهامّ ، فإذا رجعتُ إلى نفسى ، أتبين ما يشغلنى ويثقلنى ، لم ألمِسْ شيئاً يقوم به عذرى ، وتنهض حجتى ؟!

تعلقتُ بترام « شبرا » واتخذتُ لى موقفاً فى الدرجة الثانية ، ولبثتُ أعانى ضغط الزحام من حولى ، ولكنى لم أُلْقِ لذلك بالاً ، فقد أَلِفتُ هذا الوقوف ، واحتمال مكارهه ، طوعاً لسياسة الاقتصاد التى أَخذتُ بها نفسى فى المعاش .

لماذا أنا ضائق ؟

لقد أنجزتُ كل مطالب العيد ...

أعددتُ البطاقات والرسائل التى أحيِّى بها الأهل والخلان .

أوصَيتُ بصنع الفطائر وشراء الفاكهة والورود ، للذهاب بها إلى القرافة فى الصباح .

cemetery

كتبتُ قائمة بالعيديّات التى علىّ أن أمنحها للمحتاجين وغير المحتاجين ممن أتوا منحتى فى هذا اليوم السعيد .

ووجدتُ يدى تفزع إلى جيبى تنتزع منه دفتر الحساب ، واستغرقتُ فى مراجعة ميزانية العيد ، مجتهداً فى اختصار مايمكن اختصاره ، سيراً على سَنَن الاقتصاد الحميد .

وما زلتُ مصروفا إلى دفترى وحسابى ، حتى كاد الترام يجوز الموقف الذى يجب أن أنزل فيه ، فقفزتُ من المركبة قفزة زَلَّت بها قدمى ، فتماسكتُ وتمالكت ، واتخذت الطريق إلى منزلى ، وأنا أغمغم ساخطاً ثائر النفس .

وما خطوتُ بضع خطوات ، حتى برز لى رجل أشعث أغبر يتوكأ على عصاه ، وعلى فمه ابتسامة مَلَق باردة ، فمد يده القذرة قائلا :

كل عام وأنتم بخير ...

فصحتُ به :

وأنتَ فى شرّ يا سيدى . . . ليس لدىّ ما أعطيه !

دخلت الحارة الضيقة ، لأبلغ منزلى الصغير .

إنه المنزل الحبيب إلىّ ، على الرغم من قِدَمه وضآلته .

لقد أورثنى إياه أبى ، وإنى لمشفق عليه مما أصابه من تصدُّع ، فما أشبهه بعليل أزمَنَ داؤه ، حتى أوشك أن يصرعه .

والحق أن من الرحمة القضاء على مثل ذلك العليل ، تخفيفاً عنه ، وإراحة له مما يلاقيه ، وذلك ما اعتزمتُ فى شأن منزلى العزيز . . لَأَهْدِمَنَّه ، ولأقيمنَّ مكانه داراً جديدة على طراز هندسىّ حديث .

إنى لفاعل ذلك حتما ... ولكن متى ؟.. لست أدرى ... فقد انتويتُ ذلك ، و بنيت العزمَ عليه ، منذ قضى والدى . وها هى ذى خمسةَ عشرَ عاما تمرّ ، وأنا أرسُمُ على الورق خِطَط الدار الجديدة ، وأُعمل فيها يد الإصلاح والتعديل ، وَفقاً لما يجدّ فى هندسة البناء ومرافق الحياة من مخترعات وكشوف ، وما برح المنزل القديم ماثلا يصارع الزمن فى تجلد واحتمال .

دخلتُ الدار ، وألقيتُ بالطربوش جانباً ، ورحتُ أمسح عرقى . ولم يكد يستقرّ بى المقام حتى صافح سمعى صوت صبىّ يتباكى وينتحب انتحابَهُ المملول .

إنه ابن الطباخ ، ذلك الذى يكمُن فى ركن المطبخ لا يَبْرَحه فى ليل ولا نهار ، كما تكمن القطة مترصِّدةً لكل ساقطة !

يعلم الله أىّ خسارة يجشِّمنى إياها ذلك الصبىّ الشَّرِه الشَّغُوب .

إنه ساعد أبيه الأيمنُ فى التصيُّد والاغتنام !

فيم نَحِيبُه وتباكيه ؟

ألا يتقلب فى أعطاف خيرى ، وينمِّى عظمه ولحمه من حُرّ مالى ؟

هذه الديدان الصغيرة هى التى تعمَل فى خراب البيوت ما يَعْمَل السُّوس فى الخشب الغليظ !

ضِقتُ ذرعا بما تواصَل على سمعى من ذلك الطنين السقيم الذى استرسل فيه ابن الطاهى ، فصحت :

إن لم تسكت لكم ضوضاء فلقتُ أدمغتكم !

وانقطع الصوت ، وشاع الصمت ، وانكفأتُ على المنضدة أتصفح دفترى ، وأراجع حسابى .

ما زال دخلى وافراً بحمد الله ، وما زالت ثروتى تتكاثر ...

ما أيْمَنَ تلك السياسة الاقتصادية التى التزمتُها منذ خَلَفْتُ أبى على ماله ... لقد نَوَّلَتْنى خيراً جزيلاً ، ولكنى مع ذلك ظَلِلْت فى الحياة فرداً ، لا يخدُمنى إلا ذلك الطباخ وابنه المنهوم ... وهأنذا قد ذَرَّفْتُ على الأربعين ، وأنا مستكمل أسباب العافية ، فى عِيشة راضية .

عجباً لأولئك الذين لا يتركون الناس يَحْيَوْن فى طمأنينة وأمان ...

ما شأن الخلائق بى ؟

ما بال هؤلاء المتطلعين يُحْدِقون بى ، ويُحَدِّقون فىّ ، تنبعث من أعينهم نظرات الحسد والحقد ؟

وإنى لأحس بأن أشد الناس عداوة لى ، هم أولئك الأقارب الذين إخالهم يعُدُّون علىّ ما أُصيب من لُقَيمات .

هذا عمى « لطيف بك » ما أسمجه وأثقله ! ... قامة كالسارية عجفاء ، وعُنُق تمتد كأنها أفعى ، وشفتان تَبْدُوَان فى ابتسامة كابية حين يتحدث إلىّ ... وإن ريقه ليتحلَّب طمعاً فى ثروتى التى تربو على ثروته ولا تفتأ تربو ... وإنه ليتحوَّلُ كلّ حيلة لِيَغُلّ رقبتى بالزواج من بنته «فكرية»، فهو يَنْصِب لى ذلك الفخ الأنيق ، ولكن هيهات أن أكون له صَيْدا !

أما ابنته فأعترف بأنها على شىء من الوسامة ، وإنى لأحس بأنها تميل إلىّ كل الميل . وكيف يغيب ذلك عنى ، وأنا الذى لا تَنِدُّ عن فطنتى خفايا النفوس ، ولا يُعْيينى أن أَسْتَكْنِهَ ما هو مستور خلف الظواهر ؟

إلاّ أن عقلى ينهانى أن أرضى بهذا الزواج الذى يهدد ثروتى ، ويُشْفِى بها على الخطر ... وهل الزواج إلا نفقات إثر نفقات ، تَستنزف الأموال ، وتهدم الثروات ؟

خاب فأل عمى ، وذهب طمعه أدراج الرياح !

وألفيتُ يدى تَعبَث فى درج المنضدة بأوراق ، وإذا بها تخرج رسوم المنزل الجديد الذى أزمعتُ ابتناءه ، فأقبلتُ أدرس الرسوم وأفاضل بين بعضها وبعض ، متوخياً أن يكون منزلى المنشود على أحدث طراز تتوافر به الراحة والطمأنينة .

إنى لأذكر يوماً دخل علىّ فيه عمى ، وأنا باسطٌ هذه الرسومَ أتصفحها ، فجعل يشاركنى فيما أنا فيه ، وكانت له ملاحظات فى شأن حُجَر الأطفال

وما إليها . وفيما هو يتحدث ، كان يكشف لى فى ابتسامته المُدَاهِنَةِ عن أسنان نَخِرة صُفْر .

حقًّا ما أسمجه ! ... ما أسمجه !

سألقَى عمى هذا حَتْمًا فى القرافة صبحاً ، فهو لا يتخلف عن زيارة القرافة فى كل مناسبة وكل موسم .

إنه يَعُدُّ اختلافه إلى تلك المقابر نزهة طيبة ، فأراه هنالك متطلق الوجه ، هانىء البال .

عجباً له يُبْدِى هذا التفاؤل الموصول ، حتى فى مَثابةِ الموتى !

إنى مُلاقٍ عمى فى غدى ، وإنى لمحيِّيه تحيةَ العيد لا بدَّ ، وسألقَى معه شِرذمة من ذوى القربى ، أولئك الذين لو كشفوا عن طواياهم ، وأفصحوا عن نياتهم ، لصاحوا صوتاً واحداً ، وهم يحيوننى :

كل عام وأنت مع الراحلين ...

ما أشقَّ يوم القرافة علىَّ !

أَلَا ساءتْ تلك العادات المرذولة من توزيع الفطائر والفواكه على قوم لا يطعَمونها ، وإنما يجمعونها ليبيعوها بدريهمات !

لقد أيقنتُ أن طاقات الورود التى أنتقيها ، وأبذل فيها غالى الثمن ، تكريماً لمن يضمهم الثرى من أهلى ، لا تلبث أن تُحْمَلَ بعد مغادرتى للقرافة ، فتباعَ لمن يطلبها زينةً لمجلس ، أو حِلْيَةً لعُرْس !

ومن هو المستغل الأول لهذه النفقات ؟

هو « التربىّ » ... « التُّرَبى » ... يا لله من هذا الرجل الذى يتظاهر بالتديّن والتقوى ، لا تفارق السُّبْحَة الطويلة السوداء أصابعه ، ولا تلقاه إلا بفم يُبَسْمِل ويُحَمْدِل ، ويعلم الله ما يُكِنُّه فى وليجة نفسه من خبث وشر وطَماعية !

هذا « التربى » ... إنى ملاقيه أيضاً غداً ، فهو يقف على رأس الطريق ، يرتصد لِمَقْدَمى ، فما إن يلمحنى قادماً حتى أجده قد تحامل على ساقيه ، متراثياً بالبِشر ، قائلاً لى :

كل عام وأنتم بخير ...

ثم يمسك بيدى يحيينى تحية حفاوة وإكبار ، فأشعر ويدى فى يده بِرِعْشَة تسرى فى أوصالى ... إن تلك اليد الهزيلة المعروقة التى يحيّينى بها هى التى ستوسِّدنى تراب القبر ، وتسوِّى عليه جنادله الصُّمّ ... لَأَكاد أراه جاثماً على فم القبر ، حارساً له ، كأنما يصدُّنى أن أَخْلُصَ من سجن التراب إلى دنيا الطلاقة والنور !

وإنى لأتمثل فى مُخَيِّلتى هذا « التربى » وقد جمع حوله تلك الشرذمة من أقربائى ، على رأسهم عمى ، وهم يتقاسمون فى اجتماعهم مالى ، ويتوزعون ثروتى ... تلك الثروة التى ضَنِيتُ فى جمعها وادخارها ، وهم فى خمولهم يتثاءبون .

هى ثروة أسهرتُ فيها جفنى، وأسْقَيْتُها جهدى ، وتعهدتها بحيلتي وفطنتى .

كم من صفقاتٍ مُرْبحة لبيوع جَبْرية ، ما زلتُ بها حتى اغتنمتها !

كم من مآزق وضوائق ، فى أسواق البيع والشراء ، انتهزتُ فرصتها ، فكانت كسباً عظيما !

أ أترك هذه الثروة نُهْبَةً لأُولئك الحَقَدة والحسَّاد من أقارب الطامعين ؟

ما اضطرارى إلى زيارة هذه القرافة ؟

أما آن لنا أن نثور على هذه التقاليد البالية التى لا خير منها ولا نفع ؟

وما لى أجشِّم نفسى ما لا ترتاح إليه نفسى ؟

بِئْسَ يومُ العيد من يوم عَبُوس ، أقضيه فى هذه القرافة البغيضة ، فتتجمع فيه على كاهلى آلام العمر ، وهموم السنين !

وفزِعتُ إلى دفتر الحساب ، وأنا أزْفِر .

وشغلتُ نفسى بالأرقام وقتاً أجمع وأطرح .

ما ألَوْتُ جهداً فى القيام بما يجب علىّ لذكرى والدىّ كليهما فى هذا الموسم الكريم .

هأنذا أُوصى القراء بتلاوة القرآن ، فى المواعيد المقررة ، وأُجرى عليهم ما جرت به العادة من أرزاق .

أين الشُّحُّ الذى يعزوه إلىّ هؤلاء الأفَّاكون ؟

أنا أنفق المال فى وجوهه ، قياماً بالمفروض .

حسبى أنى عن نفسى راض ، ولن يكون للحَقَدَة والحسّاد من نصيب إلا الخزى والخسار .

سيمُدُّ الله فى عمرى ، وستظل فى يدى ثروتى التى تتحلَّب لها شفاه أولئك الأقارب المتكالبين !

ووقع بصرى على المذياع ، فنظرت فى ساعتى .

فى الوقت فُسحة ، حتى يحين موعد الحفلة .

الحمد لله على ما وَهَبَنى من عقل أَضْبِط به أمرى ، وحزم أُحْكِم به تصرفى .

لقد آثرتُ القُفُول إلى دارى ، أَنْعَم بجلسة رخيَّة ، فأستمع إلى غناء الحفلة فى هدوء واطمئنان .

ورحت أخلع سُترتى ، وأستبدل بحذائى خُفَّ المنزل .

أكنتُ مستطيعاً أن أكون على هذه الحال المريحة لو ذهبتُ إلى المسرح للسماع ؟ المسرح المكظوظ بالروّاد ، المخنوق بالأنفاس وضَبَابِ الدُّخان !

أين يقع ذلك المسرح من جلستى الطيبة فى منزلى الآمِن ، حيث أملك التصرف فى أمرى كله على الوضع الذى أَهْوَى ؟

وفتحتُ النافذة استجلاباً للنسمات الرقاق ، فطالعتنى تلك الأبنية الشوامخ ، كأنما هى مَرَدَة عماليق تأخذ الطريق على منزلى الوادع .

وجعلتُ أمسح جبينى المتفصِّد عرقاً ، وأنا أحاول استنشاق الهواء ، ثم انطلقت أُرْجِع البصرَ حولى .

يا له من عُشّ جميل أسعَد بسكناه !

ولكن سرعان ما تبدَّت لى على ضوء المصباح الكليل تلك الحوائط المستهدِمة ، وذلك الأثاث الرثّ .

عيبى الذى أعترف به أنى وفىّ أُلوف ، لا أحب التغيير والتبديل ... بيد أن سنّة الكون غالبة ، وسيحين وقت يضطرنى إلى التفريط فى ذلك العُشّ القديم ، فأقيم مكانَه مَغْنًى عصريا جديداً .

وخطوتُ الهُوَيْنَى ، وأنا أروِّح وجهى بمنديلى مهمهما :

يا لَهَذَا الهدوء الجميل !

ما أروعَ أن ينفرد المرء بنفسه !

نِعْمَتِ الوَحْدة ، ونعم الصمت !

وفى تلك اللحظة علا صوت ابن الطباخ يُعْوِل ، يطلب المعونة والغوث ، فصحت :

كررت عليكم أنى لا أريد الضوضاء ... سكوتاً !

وألفيتُ الصبى يُهْرَع إلىّ باكى العين ، وخلفَه أبوه ... وما هى إلا أن أمسك به ، وأنحَى عليه يعنِّفُه ، فقلت للطاهى ثائر الصوت :

ألا تسكن لكم ضوضاء ؟ أليس عندكم حياء ؟

فانبرى الطاهى يعتذر ، وهو يقول :

الولد يرغب فى حُلَّة جديدة للعيد ، وهو مصرّ على ألا يلبس من قديم ثيابه شيئاً .

فقطَّبْتُ ما بين عينىَّ ، وأنا أجيبه :

وما شأنى ؟ لقد أخذتَ مِنْحَة العيد منى ، فدبِّر أمرك .

وما لبثتُ أن أشرتُ إليه أن ينصرف ، فمضى يجرجر ابنه المتباكى .

لا مِرْيَةَ عندى فى أن المنحة التى خصصتُ بها ذلك الطاهى لا تقوم ثمناً لثوب جديد ، ولكنى لست المسئول عن تدبير تلك الشئون ، فما أنا لذلك الطفل بوالد .

وانسرحتُ أفكر ، وأنا ألمح شبح الغلام متباكياً يطويه الباب فى ذلة وانكسار .

لو كان قُدِّرَ لى أن أتزوج لأعقبتُ مثلَ هذا الغلام ...

عجيب أن يدور هذا الخاطر برأسى !

أى زواج ؟ وأى غلام ؟ !

أكنتُ أرضى أن يكونَ لى ولد مثله ، يزعجنى ببكائه ، ويقلقنى بمطالبه ؟

وحانَت منى نظرة إلى المذياع ، أُنعم النظر فيه .

جليلُ الفائدةِ هذا المذياع !

لقد أربحنى جنيها كاملاً كنتُ أبذله الليلةَ ثمنا لِتَذْكِرَةِ الدخول

فى المسرح ، غير ما قد يَجِدّ من نفقات يحمينى البقاء فى المنزل أن أبذلَها .

المسرح ... المسرح !

وظَلِلْت أتخيل ما فيه : أنوار سواطع ، مشاهد بهيجة ، جمهور يعلو قَسماتِه البِشْر والائتناس ، وتتنقّل بين طوائفه النكات والمداعبات .

وكيف لا يكون الأمر كذلك ، والجمهور مقبل على الاستمتاع بحفلة من أروع حفلات السنة فى ليلة العيد ؟

لماذا أُحس الساعةَ انقباضاً وكآبة ، على حين أن الجو كلَّه مَدْعاة إلى فرح وابتهاج ؟

لماذا أستشعر الآن وحشة وقلقاً ، على حين أنى فى منزلى الأمين ، لا يشغلنى شاغل ؟

وطَفِقْتُ أَذْرَع الحجرة فى جيئة وذُهوب ، وأَخْيِلَة المسرح تتراقص أمام عينى مختلفة الألوان .

وألفيتنى أتّجِه إلى « التلفون » فأطلب بائع الدخان القائمَ حانوتُه على رأس الشارع ، ذلك الذى أعرفه يُعْنَى بالحصول على تذاكر الحفلات الكبرى ، ويتجر بها بين المختلفين إلى حانوته .

ولما أجابنى قلت له :

لَم أطلبْك إلا لأحييك تحية العيد ، جريا على سنتى مع المعارف والأصدقاء .

فردّ الرجل تحيتى فى أدب ورقة ، فتابعتُ قولى :

كيف حال التجارة ؟ وماذا كان من شأن التذاكر الخاصة بحفلة الليلة ؟

فسرعان ما قال لى ، والسرور يتجلى فى صوته :

لقد بعتُ التذكِرَةَ بضعف ثمنها ، وقد نَفِدَتْ التذاكر جميعاً . . . أما شباك التذاكر فى المسرح ، فقد أُغلق منذ الضحوة . . . لا تحسبنَّ يا سيدى أن فى استطاعتك الحصول على تذكرة الآن .

فعاجلتُه بقولى ، مكروبَ الصوت :

أمجنون أنا حتى أسعى إلى شراء تذكرة ؟ أتريدنى أن أُهرق راحتى وأترك منزلى ، لأزجّ بنفسى فى ملتطَم من الجمهور الصاخب ؟

ووضعتُ سماعة «التلفون» وعدت أَذْرَع الحجرة ضائق الصدر .

كيف فاتنى أن أدعو نفراً من خُلاَّنى يقضون هذه الأُمْسِيَّةَ معى بجوار المذياع ، فأجد لمشاركتهم ما ينفى الوحشة عنى ؟

ولكن هل كان يجمل بى أن أدعوهم ، دون أن أهيىء لهم بعض الطعام والشراب ، احتفاء بِتَقْدَمِهم علىّ ؟

بَيْدَ أن هذا الطعام والشراب أكثرُ نفقة من ثمن التذكرة وتمضية العَشِيَّةِ فى المسرح ، فأىُّ جدوى لهذا الإجراء ؟ ألاَ ساء هذا التفكير !

كانت الفكرة السليمة الموفقة أن أقتصر على دعوة صديق الأثير ، رفيق منذ الطفولة : « حسنى » . . . وإن ضيافة فرد واحد لا تكلفنى إلا القليل .

إلا أنى أعلم علم اليقين أن «حسنى» يقضى ليلته فى بيته ، بجوار المذياع ، ومن حوله زوجه وبَنُوه .

لقد أنشأ « حسنى» أُسرة يدَّعى أنه ينعم معها بعيش خصيب ، فهل هو صادق فيما يدعيه ؟

يا طالما نَعَيْتُ عليه أنه تزوج ، وعددت ذلك زَلة فرطت منه ...

الزواج ! ما الزواج ؟

أليس هو إهداراً لحرية الزوج كل الإهدار ؟

أو ليس هو تجشُّما لألوان من التَّبِعات تقصم الظهور ؟

أو ليس هو سلسلة من النفقات موصولة الحلقات يوما بعد يوم ، ولا سيما فى مثل يوم العيد الذى يلقبونه اليوم المبارك السعيد ؟ .. وأى بركة وسعادة لمن هو مطالَبٌ بالإنفاق بعد الإنفاق ، فيما يسمونه الواجبات والأوضاع ؟

لا عقل لمن يُسْلِم عنقه لِنيرِ الزواج !

الحمد لله الذى كَمَّلَنى بعقلى ، فحمانى أن أكون زوجا !

لست أنسى قول «حسنى» إذ يمارينى فى شأن الزواج والأبوة :

يجب ألا يكون الإنسان أنانيًّا فى الحياة ، يؤثر نفسه بكل شىء . . .

الزواج تآلف وتعاطف ومؤازرة ، وهو سبيل الذرية الصالحة ، تلك التى هى قِوام المجتمع الركين ، هى وَصْل لحياة الوالدَيْنِ بعد انقضاء العمر ، هى الوسيلة الكريمة لتحقيق فكرة الخلود .

وكان « حسنى » حين يبلغ هذا المَبْلَغ من قوله ، يأخذ بكتفى وهو يهزُّنى متحمساً ، ثم يقول :

لن تَفْنى فى هذه الدنيا ما دام لك ولد !

وإن «حسنى» إذ يَقْرَعُنى بقوله هذا فى فلسفة الخلود ، ليذكِّرنى بموقفه فى عهدنا الغابر أمام مدرِّس اللغة العربية ، إذ كان يُلقى محفوظات من الشعر والنثر ينال عليها النهاية العليا فى دفتر الدرجات ، فهو إذ يردِّد لى اليوم كلامه فى فلسفة الخلود لا يزيد على أن يكرر على مَسمَعى ما يعيه من المجلات والكتب التى يبعثر فى شرائها ماله !

لقد كان «حسنى» فى عهد المدرسة تلميذاً مثالياً يواظب على الحضور ، ويحفظ الدروس ، ويطيع الأساتذة ... فليس بِمُسْتَنْكَرٍ عليه أن يكون اليوم زوجا مثالياً يحمل ما يُلْقَى عليه من تَبِعات وفروض !

وأُحْدِّثُ مرة زرتُ فيها دار «حسنى» كانت منذ أسبوعين ، إذ قصدته مهنئاً إياه بطفله الثالث ، ولا يبرح مخيِّلتى مَرْآه وهو مقبل علىّ فى بِشر وابتهاج ، وبين يديه وليده الجديد . وما إن لمحنى حتى بادرنى يقول ، وهو يُمِيط اللثام عن وجه الطفل فى اهتياج :

انظر ... انظر ... ألا ترى فيه ملامحى وَضَّاحة متميزة ؟ انظر إلى أنفه ، أليس هو أنفى ؟ انظر إلى عينيه ، ألست تراها عَيْنَىَّ ؟ ما قولك ؟ إن هذا الطفل صورة لى ، قطعة منى .. إنى لأحس بأنى أحيا فيه حياة جديدة

أخرى . . أليس هذا هو الخلود عين الخلود ؟ !

وألفيتُنى أحدِّق فى وجه الطفل ، ملاطفاً إياه وقتاً .

ما أملحَ هذا الكائن الصغير الذى تتجمع فيه عناصر الإنسان كاملة !

إنى لأعجب وأنا أنظر إلى تلك اللفيفة المختلجة ، كيف تغدو بعد حين إنساناً سوياً له شأنه ؟

وتعالت صيحات الطفل ، فأخذ «حسنى» يجول به فى الحجرة يهدهده ، والطفل مسترسل فى صياحه لا يسكن ، فلم يجد أبوه بُدًّا من أن ينطلق به إلى أمه .

وشيعتُ صديقى فى منصرَفه بابتسامة إشفاق ، وأنا أردد :

هذا هو الخلود عين الخلود ! . . أراحنا الله أيها الصديق المخدوع من مثل هذا الخلود !

وبينما أنا فى ملتطَم هذه الأخيلة والتصورات ، إذ أنبهتْنِي دقات الساعة يعلنها مِذياع الجيران ، فانحسر عن رأسى وافد الذكريات المتداعية ، ومددتُ يدى إلى المذياع أهُمُّ بأن أعْرُكَ مفاتيحه ، فما لبثتُ أن سمعتُ ابنَ الطاهى مسترسلا فى أنينه ، فأردت أن أصيح إسكاتاً له ، ولكنى لم أفعل .

ما أبْيَنَ الحزن فى بكاء هـذا الطفل ، فإنه ليشعر بما تمتلىء به نفسه من كُربة وتحسّر !

هذا الكِساء الجديد الذى أعُدّه أنا شيئاً تافهاً لا بال له ، يعُدّه ذلك

الصبيّ أُمنيته القُصوَى ، وكنزه الثمين !... فهو يطوى الأيام والليالى ارتقاباً ليوم العيد ، ذلك اليوم الذى يُتيح له أن يخرج فى حُلَّته القشيبة ، مزهوًّا بها بين أترابه ولِداته ... وها هو ذا الليلة يقتله الأسى ، إذ يجد نفسه محروماً فى غده تلك المتعةَ ، فلن يخرج إلا فى ثوبه القديم ، وهو خَزْيَانُ يتوارى عن عيون رفاقه المتفاخرين بالجديد من الثياب !

ولكن ماذا أنا مستطيع أن أعمل له ؟

ما أكثر أمثاله ممن لا يُنيلهم العيدُ ما يشتهون !

الدنيا تزخَر بالمآسى وضروب الحِرمان ، وما خلقنى الله عائلا للبشرية ، كفيلا بإسعاد الأشقياء !

وتواصل عويل الطفل ، حزينَ الرنين ، فأذكَرَنى ذلك وليدَ «حسنى» وهو بين يدى أبيه لا يسكن له صياح ، وأبوه لا يَمَلُّ الطواف به فى الحجرة يُهَدهده فى رِفق وحنان .

وما برحتْ أذنى تحمل أصداء قول « حسنى » :

إن هذا الطفل صورة لى ، قطعة منى ... إنى لأحس بأنى أحيا فيه حياة جديدة أخرى !

ووجدتُنى أذْرَع الحجرة تُطْبِق علىّ الوحشة من كل جانب ، ثم وقفتُ أمام الرسوم الخاصة بمنزلى المُزْمَع بناؤه ، فألقيتُ عليها خواطف النظرات ، ثم ارتسم فى خاطرى أن هـذا المنزل قد تم بناؤه على أحدث طراز ، وهو

عامر تتجلى فيه بهجة الحياة ، وتخيلتُ أنى مقبِل على المنزل ، فإذا طيف « فكرية » ابنة عمى ماثلةً فى النافذة ، تلوِّح لى بمنديل فى يدها ، وعلى ثغرها ابتسام !

لم تبقَ مِرْية فى أنى مُتعَب منهوك ... وإلا لما دار فى رأسى هذا التخليط ، ولا جرى فى مخيِّلتى ذلك السُّخْف من التصورات !

وقصدتُ إلى النافذة أستَرْوِح ، وتطلعت أتفرج ...

ثمةَ السابلة فى غدوّ ورواح ، وهم مستبشرون طلقة وجوههم ، يتطارحون تحايا العيد .

ما فتِىء ابنُ الطاهى ينتحب .

ورأيتُنى أذهب إلى حجرة الأَصْوِنَة ، حيث تستقر الملابس والتحف ، وطَفِقْتُ أقلِّب فيها ، حتى أخرجتُ منها صُنْدُوقا تليداً تصان فيه بعض الحلِىّ والنفائس ، فوضعته على المنضدة مَعْنِياً به ، وفتحته أتملَّى ما يحتويه ، فبرز لعينى خاتم لأمى ، وذكرت قولها :

هذا الخاتَم تستبقيه لزوجك يا بنىّ ... لا تفرط فيه ، ولا تَهَبْه لغير من تختارها لك زوجة !

وجعلت ألمس الخاتَمَ بين أناملى ... إنه خاتَم طويل العمر ، تتوارثه الأسرة خلَفاً عن سلف ، كما هو شأنها فى كثير غيرِ هذا الخاتم من نفائس وألطاف .

تلك هى ساعة من الذهب كانت لأبى ، وقد أوصانى أن تكون ميراثاً لابنى البكر ... فغمغمتْ شفتاى :

ابنى ؟ ! ... ابنى ؟ !

وظل بكاء ابن الطاهى يلاحقنى حيثما حللتُ .

لا مندوحةَ لى عن إسكاته على أية حال !

وأودعتُ الحُلِيَّ صُندوقَها التليد ، وحملتُ الصندوق إلى حِرْزِه المكين ، وانثنيتُ أقلب فى الأصْوِنَة ، حتى عَلِقتْ يدى بحُـلَّة صغيرة مزركَشَة كانت لى فى عهد صِباى ، وقد صُنعتْ فى مناسبة خاصة بى ، فاحتفظتْ بها أمى منذ ذلك العهد تَذْكاراً لتلك المناسبة

وما هى إلا أن انتزعتُ تلك الحُلَّة ، وعَجِلْتُ بها إلى المَطْهَى ...

لا شك أن مصير هذه الحلة أن تكون طُعْمَةَ للعُثّ ، فلا خُسران علىّ فى أن أُسكت بها ذلك الصبىَّ الذى لا ينقطع لبكائه طَنِين !

وما إن رآنى الصبىُّ حتى تَفَزَّع ، ولاذ بأبيه يلتمس عنده المأمَن ، فقلت له وأنا أمُدّ بالحلة يدى :

لا تخش بأسا أيها الأبله ... تلك حُلَّة العيد ، ما كنتَ لِتَحْلُمَ بالحصول على مثلها ما حَيِيتَ ... فافرح بها ، وأقصِرْ عن البكاء !

فتلقفها الصبىّ وهو يتواثب طرباً ، وفغر الطاهى فاه متعجباً ، ثم صاح بطفله يقول :

اذهب فقبِّل يدَىْ سيدك الذى جاد لك بما لم يَجُدْ به لأحدٍ قبلك ... ولْنَدْعُ له بطول العمر ، ورَغَد العيش ، والذرية الصالحة بنينَ و بنات ، يعيشون فى ثبات ونبات !

وجاءنى الطفل مهتاجاً يهْوِى على يدى بفمه ، فوجدْتُنى ألاطف شعره ، وأتوسّم وجهه ، وقد بدأتُ أستشعر ارتياحاً ورِضا ...

وتلفتُّ حولى ، فخُيِّلَ إلىّ أن ذلك المَطْهَى العَبُوسَ قد اكتسى تألقاً وبهجة !

ثم وقعت عينى على الطاهى ، فلبثتُ أتفرّس فى وجهه الموسوم بمختلف التجاعيد ، وهو مقوّس الظهر ، كأنه شجرة عتيقة نال منها الزمن ، وأوشكتْ أن تعْصِفَ بها ريح الفناء !

ثم عدلتُ ببصرى عنه إلى الصبىّ ، وهو فى نضارة وجهٍ ، وفتوّة ملامح ، كأنه فَنَن رَطْب ينبت من جذور تلك الشجرة الفانية مُورِقاً يتفتح للحياة !

غداً يقتلع البستانىُّ تلك الشجرة العتيقة ، فيخلصُ بتعهده وتنميته لذلك الفَنَنِ الغضّ ، حتى يشقّ مكانه فى الأفق !

ولكن هل تفنى تلك الشجرة العتيقة حقاً ؟

إنها أودَعَتْ خصائصها جميعاً ذلك الغُصْنَ النابت ، فهو يستأنف حياتها فى الكون ، ويجدِّد عمرها على ظهر الأرض . . .

وقفلتُ إلى حجرتى ، وقد تخففتُ من وحشتى ، وجعلتُ أُحرِّكُ مفاتيح المذياع معابثاً إياها ، ثم أخرجتُ ساعتى ، وعلمتُ أن الحفلةَ آتية بعد قليل .

وفيما أنا قُبالةَ المِذْياع ، أُعابثه ، إذْ بيدى تنسلُّ إلى جيبى فتلامس فيه شيئاً . ماذا ؟ يا لَلْعَجب ! . . . إنه خاتَمُ أمى الذى أوصتنى أن أجعله لعروسى هديةَ الزواج .

كيف وضعتهُ فى جيبى ؟

كيف نَسِيتهُ فيه ؟

ومكثتُ أتفحّص الخاتَمَ ، وقد طاف بخاطرى شَبَح « فكرية » ابنة عمى ، وهى تحيينى تحية خَفِرة ، وتبتسم لى فى تلطّف .

لستُ أنكر أنها فتاة أنيسة ، ولا شك أن قلبها عامر بحبى .

أما أنا فما هو شعورى لها ؟ أعترف بأنى تُجاهَها لغز معقّد عَصِىّ .

وجعلتُ أدفع بالخاتَمِ عالياً ، وأتلقفّه باسمَ الثَّغْر .

وعدتُ أطوى الحجرة ذهاباً وجيئة ، فى خطوات مهتاجة .

وبغتةً ألفيتنى أمام «التلفون » ، وأدرتُ القرص فى غير وَعْى ، وإذا أنا بعد لحظة أُكلم عمى قائلا :

أردتُ أن أبادر إلى تحيتكم وتهنئتكم بالعيد . . . كل عام وأنتم بخير .

— وأنت بخير يا بُنَىّ . . . كيف حالك ؟

— الحمد لله . . . وأنتم كيف حالكم ؟

— لا بأس . . . لا جديد .

— ماذا تفعلون الآنَ يا عمى ؟

— نحن الآن مجتمعون تأهُّباً لسماع الغِناء فى حفلة الليلة .

— اتفاق طريف . . . وهذا شأنى أنا أيضاً !

— حالنا واحد !

— ولكن ثَمَّةَ فرق بيننا، فأنتم أسرة كثيرة العدد ، وأنا واحد فرد .

— وَلِمَ الوَحْدةُ يا بُنَيَّ ؟

— هذا ما جَرىَ . . . ولا أكتم عنك أني أشعر بوحشة !

— . . . هل لى أن أقترح عليك ؟

— اقترح ما شئتَ .

— لم لا تكون بيننا ، فنأنَسَ بك ، وتشرَكَنا فيما نحن فيه من اجتماع الشَّمْل ؟ .

— كيف ؟ أأنتقل إليكم الآنَ ، وقد تأخر الوقت ؟!

— يا بُنَيَّ ، لا كُلفةَ بيننا . . زيارتُك فى كل وقت موضعُ ارتياح !

— . . . لست أدرى بماذا أُجيبك ؟

— دعنى ألحَّ عليك فى المسارعة إلى الحضور . . . ستزيد ليلتنا طِيباً ومسرّة .

— أحقًّا ؟

— أأنتَ فى ذلك ترتاب ؟ لا تتكاسلْ ، ولا تتلمس المعاذير . . .

— سأحاولُ يا عمى .

— نحن فى انتظارك .

— أرجو أن أفعل ، ولكن لا تَعْتِبوا علىّ إن منعنى عائق . أشكرك يا عمى أجزل الشكر . . . طابَ مَساؤك . . . تحياتى للأسرة جميعاً . . . تحياتى « لفكرية » !

وألفيتُنى أُهْرَع من فورى ، فأستخرج حُلَّتى الجديدة ، وما هى إلا دقائق ، حتى كنتُ أنيق البِزَّة ، ينفَحُ العطر منى ، وأنا بباب الدار ، جَيَّاش الوِجْدان ، أنتظر سَيَّارة أجرة ذهب ابنُ الطاهى فى طلبها .

و بين الحين والحين ، كنت أضع يدى فى جيبى ، لأستوثقَ من وجود العُلْبة الفاخرة ، يتوسَّطها الخاتَمُ الذى أوصتنى أمى أن يكون هديةَ الزواج !

صِرَاع فى الظَّلَام

غادر الشابّ حدود القرية النائية التى اتخذها لنفسه مُقاما جديداً منذ سنوات قلائل... غادرها قافلا إلى قريته الأولى مَسْقَط رأسه، وموطن أبويه.

هذه هى المرة الثانية التى يزور فيها بلده الأصيل، وإنه ليطرقه والليل فى مُؤْتَنَفِه، كما طرقه فى مثل هذا الوقت منذ عامين اثنين.

قَدِمَه فى المرة الأولى ليشهَد عُرس أبيه، مجاملة له، ورغبة منه فى أن يصفو ما بينهما من كدَر المنازعة والخلاف. فلقد ظل الشقاق يدِبّ بين الِابن وأبيه، حتى اضطُرّ الشاب أن يفارق موطنه، وأن يستقل بعيشه فى قرية غير قريته.

لقد كان الخصم فى هذه المنازعة أباه، وإن للأب حُرمةً عليه أن يرعاها، مهما يَلق فى ظلال الأبوة من عَسْف وإعنات.

ما أوفقها فرصة يغتنمها الشاب، ليلاطف أباه ويترضّاه، وإن كانت هذه الفرصة تهنئة يقدمها الِابن لأبيه فى زواج جديد ...!

وأىّ غضاضة فى أن يهنىء أباه بالزواج ؟

ليست امرأة الأب بالأمر الغريب عنده ... لقد قضتْ أمُّه وهو فى كنِّ الطفولة ، فهو لا يذكر من عهد الأمومة إلّا مخايل هزيلة لم تُرْوِ ظمأه من كوثر الحنان .

ولقد نشأ يرى زوجَ أبيه الأولى تسومه سوء العذاب ، ولا تفتأ تُوقِعُ بينه و بين أبيه ، فيلقىَ على يديها ألوانا من المهانة والإذلال .

ولم يُنْجِه من ذلك العيش النَّكِد الذى صَحِبَه حتى مطلع الشباب ، إلا أن يترك القرية ومن فيها ، غيرَ آسف على الفراق .

وما هى إلا أشهر تقضَّت بعد رحيله ، حتى تناهىَ إلى سمعه أن هذه الزوجة قد غَيَّبَتْها المَنُون ، وأن أباه يستقبل زوجة أخرى ، زوجة جديدة لم تقع عين ابنه عليها ، ولا يعرف من أمرها شيئاً قلَّ أو كثر .

وما له يُعْنَى بها ، وهو اليومَ يحيا حياة حرية واستقلال ، فى تلك القرية النائية ، ناجياً بنفسه من شرور زوجات الآباء ؟

ها هوذا يأبىَ إلا أن يجشِّم نفسه مشقةَ السعى إلى بلده الأول ، ليشهد عُرْس أبيه ، وكأنه يعبر بذلك عن موفور ثقته بنفسه ، واعتداده بأمره ، وحرصه على أن يظهر أمام الأب فى مظهر الندِّ للندِّ ، لايجد منه تهيُّباً ولا خَشية ، ولا يشعر معه باستكانة ولا خضوع .

حَوَّمتْ هذه الخواطر برأسه ، وهو يتخذ سبيله إلى بلده فى المرة الأولى ،

ليشهد عُرْس أبيه ، وإنه ليذكر كيف تمت هذه الزيارة القصيرة فى ذلك الوقت ... زيارة لم تستغرق إلا يوماً و بعض يوم .

لقد دخل يومئذ قاعة الدار ليلا ، وهى حافلة بالنساء يطلقن الأغاريد ، فَتُدَوِّى فى الأرجاء ، لتنافس قرع الطبول وشَدْو المزامير ...

ولقد راعته العروس فى صدر القاعة ، تَتَضَوَّأُ بَهاءً ، فتقدَّم إليها يزجى تهنئته ، وألقى نظرة على وجهها الصَّبيح ، فواجهتْه عينان دعجاوان مغرقتان فى السواد ، نجلاوان بالغتان فى السعة ... فانتظمتْه هِزَّة لم يملك نفسه معها ، هزة أثارت فى دخيلته غرائب الإحساس .

وانصرف عن الدار بعد قليل ، قاصداً ساحة البَيْدَر المهجور ، فى أقصَى القرية ، واقتعد الحجر العريض العتيق ، حَليفَ طفولته وأَلِيفَ صباه ، ذلك الذى كان يجلس إليه الساعةَ تِلْوَ الساعة ، نافضاً إليه نفسه ، شاكياً إليه بَثَّه وهمه ... !

لقد أعرضَ عن الدارِ فى تلك الليلة ، زاهداً فى مباهجها و زينتها ، ولاذ بذلك الركن الخَلِيِّ ، مُشْرِعاً عينه إلى السماء الداجية ، كأنما يرصُد مواقع النجوم ...

ما بالُه يتجافَى عن ذلك الجوِّ المَرِح الطَّرُوب ؟

وما لَهُ لا يجد أُنسا بتلك القرية التى هى مَدْرَج نشأته ، ومَثابة أهله وأخلاَّئه ؟

وَنْحَ نفسه ، إذ يحسّ فى هذه اللحظة وحشة كئيبة !

إنها وحشة تحمل إليه فى تضاعيفها سوالف ذكريات مُمِضّة ...

ما أقسَى ما يتمثله الآن من تلك النظرات المَقِيتة التى كانت تسدِّدها إليه امرأة أبيه الأولى ، تلك التى رحلتْ إلى العالم الآخر ... نظرات تَلْمَعُ من عينين دعجاوين مغرقتين فى السواد ، نجلاوين بالغتين فى السعة !

لقد واجهتْه الليلةَ عينان كهاتين العينين ، تتوهجان فى صدر قاعة الدار ... فما علة هذه المشابهة بين زوجتين نفضتْ أولاهما يدَها من الدنيا ، وَخَلَفَتْها الأخرى تستقبل الحياة فى بيت أبيه ؟

هيهات أن ينسى عينىْ زوج أبيه الراحلة !

لكأن كل عين منهما مغارة عميقة المَهْوَى ، حالكة الظُّلمة ، تعشّش فى جوانبها الأفاعى والحيات . . . . فما تكاد نظراته تلتقى بنظراتها حتى كان يستشعر انتفاضة تملك عليه أقطارَ نفسه جمعاء !

واليوم ، ما كادت عينه تقع على عين عروس أبيه ، حتى انتفضتْ أوصاله . . .

أثَمّة فارق بين انتفاضة الأمس ، وما استشعَرَه اليوم ؟

مهما يكن من أمر ، فإنه الساعة وقد عَرَتْه تلك الانتفاضة ، لا يجد إلى قَرار نفسه من سبيل .

لن يدع قلبه نَهْباً لهذا الاهتياج الذى ليس له مسوِّغ .

لقد حضر القرية ، ليهنئ أباه بزواجه ، ثم لا يُعتِّم أن يترك القرية ليعاود عيشَه الآمن الساكن فى موطنه الجديد .

وكان يسيراً عليه أن يبلغ من ذلك ما يَرُوم ، فأدَّى واجب التهنئة ، وأدْبَر عن القرية راجعاً .

وانصرم بعد ذلك عامان ، وها هو ذا يخطو إلى بلده الأصيل مرة ثانية .

ولكنه فى هذه المرة لم يكن قُدومه لعُرْس بهيج ، بل كان لمأتم مَهيب . . . ما جاء ليهنئ أباه ، بل ليتلقى العَزاء فيه !

دخل الشابّ قاعة الدار ، وهى تَعِجُّ بالنساء معولات يَنْدُبْنَ . . . دخلها فارع القامة ، عريض المنكبين ، يَخُبُّ فى جلبابه الريفىّ من الصوف الأسود .

وما إن ألقَى الشابُّ نظرةً حوله ، حتى أخذت عينُهُ فى صدر القاعة زوجَ أبيه فى جسمها الخِصْبِ الرَّيَّان ، يكسوه رداؤها الأسود السابغ ، وقد تواضح وجهها الأبيض الناصع يشوبه شحوب . . . فخطا إليها يدانيها ، فما إن استبان لها شَبَحه حتى اختلج مُحَيَّاها اختلاجة إجهاش ، فأسرع مقبلا عليها يواسيها بمألوف الكلام فى مثل هذا المقام .

ولما هَمَّ بأن ينصرف من القاعة ، رفعتْ إليه مُحَيَّاها ، فواجهتْه بهاتين العينين الدعجاوين النجلاوين ، فأحسَّ من فوره ما أحسَّه من قبلُ فى زورته الأولى للقرية ليلة عُرس أبيه .

لقد سَرَتْ فى أوصاله تلك الانتفاضة التى تهزّ نفسه هزًّا ، فبارح القاعةَ قاصداً ذلك البَيْدَر المهجور فى أقْصَى القرية ، واقتعد الحجر العريض العتيق ، وَصوَّب نظراته إلى الأفق ، يرصُدُ مواقع النجوم !

ما أشبهَ الليلةَ بالبارحة ، وإن تباينت المظاهر ، وتناقضت الأوضاع . . عُرس يُستَبْدَل به مأتَم ، وأغاريد يَحُلُّ محلَّها نَدب ونُواح . ولكن أليس الأمر فى جوهره على ما هو عليه ، بمنزلةٍ سواء ؟ !

هذه القرية هى هى ، وتلك الدارُ كما كانت ، وزوجُ أبيه كما رآها فى المرة السالفة بقَوامها الخِصْب الريّان ، وعينيها النجلاوين الدعجاوين . . .

إنه ليحسّ بأن كل شىء قد يدركه التغير ، ويلحَقه الفناء ، إلا هاتين العينين !

ما زالت الانتفاضةُ تنتظم جُسْمانه ، منذ نظرتْ إليه زوجُ أبيه . . .

شعورٌ كَمين يبعثهُ على أن يَفِرَّ من وجه هذه المرأة !

أهُوَ يكرهها ، لأنها كانت لأبيه زوجاً ؟

أيَّةُ إساءة أسلفَتْها إليه ؟

فيم هذه النَّفْرة التى يصطنعها لها ؟

أيكون مردُّ ذلك إلى أنها امرأة تنطوى على ألغاز وأسرار ، يتعذر عليه أن يكتنه دفائنها ؟

لقد ترامَى إليه من أخبارها نُتَف . . . وإنها لَعَجائبُ أخبار !

قبل أن يتزوّجها أبوه كانت زوجاً لشيخ البلد ، وكان يحبها متدلّها ، يُغدِق عليها عطاياه ، حتى أتلفَ بين يديها ماله ، وامتدّ زواجهما عامين ، لم يُرْزَقا فيهما بمولود . . . وما إن مات الشيخ عنها حتى شَغَفَتْ أباه حُبّاً ، فتزوجها وظل يُسرِف فى تنعيمها وتكريمها حتى ركِبَتْهُ الديون ، وأمضى فى صحبتها عامين ، لم يرزَق فيهما بمولود ، ثم قضى نَحْبَه بِمَرْأًى منها ومَسْمَع !

ما سِرّ هذا التوافُقِ بين الحالتين ؟

أمَحْضُ مصادفةٍ هو ؟

أتطوى هذه المرأة أحناءها على طِلَّسْم فيه الفناء والدمار ؟

تلك هى تجتذب بظاهر فتنتها قلباً بعدَ قلب ، وإذا هى تُورِدُ القلوب موارد المَنُون !

ولكن فِيمَ تفكيرُه فى هذا كله ؟

وهل له من شأن مع تلك المرأة إلا أنها اليومَ أرْمَلَة أبيه ؟

إن هى إلا أيام معدودات تنتهى فيها مراسِمُ التعزية ، ثم يفارق البلدَ فى غير إبطاء .

ماذا فى القرية يستهويه ؟

ماذا فى القرية يستبقيه ؟

لو كان لأبيه تَرِكة عامرة ، لتقاضَتْه أن يمكُثَ من أجلها ، حتى يستوفىَ

تدبيرها . ولكنّ ميراثَ أبيه تنتهبه الديون ، وحَسْبُه هو أن يأمل الإفلاتَ من مغارم الدائنين !

إن موطنَه الآخر يناديه ، وإن مستقبله فيه . . . هنالك يواصل عمله ، ويتخذ له ربةَ بيت ، وينتظر أن يُرْزَق بالذرية الطيبة ، فيرغَد عيشه ، ويَرْخى باله ، ويحيا حياة الدَّعة والنعيم .

ونهض الشابّ إلى دار لبعض أقربائه ، مُؤْثِراً أن يأوِيَ إليها خلال إقامته فى القرْية ، كما فعل فى زيارته الأولى حين قدِم ليشهدَ عُرْسَ أبيه .

وتقضتْ أيام التعزية ، وتدانتْ ساعةُ الرحيل .

إنه لتاركٌ القريةَ غداةَ غدِه .

ولكنه ما ينبغى له أن يرْحَل قبل أن يُودِّعَ أرملةَ أبيه وداعه الأخير . . .

هَبَط القاعة ، وكانت الدار خِلْواً من الناس ، وقد هدأت نَوْبات النحيب ، إلا بعضَ أصداء أحسّ بها الشاب تتردّد فى تزايُلٍ وخُفُوت .

كانت الدار يغشاها ليل بَهيم ، لا يقاوم حُلْكَته إلا مصباح هزيل تترجّح ذُبالته ، فتتخايل الظلال على الحوائط والأركان ، كأنها أشباح تنبعث من عالم مجهول .

لكأنّ هذا المصباح بما يبسط من اللهب ، وبما يثير من الظلال ، لم يُوقَدْ إلا ليبعثَ المخافة والرَّهَب ، فهو يُكسِب الدار من الوحشة والكآبة أضعاف ما يهبها من النور . . . وإنه ليؤلف مع تلك الأصداء المتزايلة ،

أصداء العويل والانتحاب ، جَوًّا قاتما عابساً يُحيل هذه الدار كهفاً مُوحِشاً فى مجاهل الأرض . . .

ولما دخل الشاب قاعة الدار ، ألفىَ امرأةَ أبيه خاليةً بنفسها ، تجلس على حصير ، وقد أخذتها غفوةُ التفكير .

وإذ شعرتْ بمقدَمِه ، انتبهت تحييه ، وما هى إلا أن فَرَشتْ على الصُّفَّةِ سَجَّادة عتيقة ، وأشارتْ إلى الضيف تقول :

تعال اجلس هنا ... فى مكان أبيك ... هذه صُفته ، وتلك سَجَّادته !

فأحجم الشاب لحظة ، فعاجلتْه قائلة :

ومن أحقُّ منكَ بأن يَحُلَّ مكانه ؟ كان هذا مجلسه الأثيرَ عنده ، يقضى فيه الأماسِىَّ ، يرتشف القهوة ، ويطارحنى الحديث . . .

ومسحت عينيها المُخْضَلتَيْن .

ووجد الشاب نفسه جالسا على السَّجَّادة ، يتحسس خَمْلَها ، وهو ساهم شارد النظر . . .

وتوارت المرأة فترة ، ثم رجعت تحمل صِينيةَ القهوة ، وقرَّبَتْ إلى الشاب قَدَحه ، وهى تقول :

إنه قَدَح أبيك الذى لم يكن يطيب له سواه ... شَدّ ما كان يحلو له أن يشرب القهوة فيه !

وتناول الشاب القدح ، وطَفِقَ يتأمله ، وأحس بالمرأة تقتعد الحصير عن

كَتَبَ منه ، فَهمَّ بأن يدعوَها أن تجلس على الصُّفَّة ، فإذا هى تقول ، مشيرةً بيدها إلى الحصير :

ذلك هو مكانى ... وهكذا كنت أجلسُ من أبيك !

وحَنَتْ رأسها تختلج فى صدرها تنهُّدات ، وجعل هو يترشَّف القهوة فى مطاولة وأَنَاة .

وأراد أن يُفْضِيَ إليها بإزماعهِ السفرَ من غَدِه ، ولكنها سبقتْ بقولها :

كان أبوك رحمةُ الله عليه كريماً واسعَ الكرم ، فأسرفَ فى الإنفاق ، وخَلَّفنَا بعده لا ندرى ماذا نصنع ؟ لا بدَّ من يدٍ مدبِّرة حازمة تنقذ الدار مما يوشك أن يستقبلها من خراب !

وسمتْ بعينيها إليه ، فما أسرعَ أن اشتبكَت النظرات ... وإذا الشابّ يهمهم :

سنتدبَّر الأمرَ . . . كلُّ شىء ينتهى إلى خيرٍ إن شاء الله .

واسترسلت المرأة تَصِفُ من خاصّة شئونها لجليسها الشابّ . . . كيف كانت تَنْعَمُ بالحياة فى ظلِّ أبيه ؟ ما مبلغُ خوفها من المستقبل ؟ إلى أىّ مصير يسوقُها القدَر المستور ؟ ... وكان بَدِيها أن يطيِّب الشابّ خاطرها ، وأن يؤمِّنها من الخوف القريب أو البعيد ! .

وانتهت الزيارة ، فخرج الشابّ تقوده قدماه إلى البَيْدر المهجور ، واعتلى ذلك الحجر العريض ، مصعِّدا بصره إلى السماء الحالكة ، بتبيَّن مسالك النجوم ،

فكانت تتراءى له فى كل نجم عين نجلاء دعجاء تتحيَّر فيها الدموع !

لماذا أجلسته المرأة على الصُّفَّة التى كان يُؤثرها أبوه ؟

لماذا بسطت له سَجَّادة أبيه الخاصَّة به ؟

لماذا قَدَّمَتْ له القهوة فى قدح أبيه المختار ؟

إن الشابّ ليعترف فى إخلاص بأن المرأة كانت حَفِيَّةً به ، وأن قلبها كان يخفق بالمودة والصفاء !

هذا الحديث الذى ناجته به ، تصف ما هى فيه من حزن وضيق ، أليس دليلا على أنها اتخذت منه موضعاً لنجواها ، ومَفْزَعا لشكواها ؟

هذه النظرات التى كانت تُرَاسله بها بين الفينة والفينة ، تتجلى فيها الدماثة والرِّفْق ، أليست آيةً تُبين عما تنطوى عليه ضلوعها من حَدَب وإشفاق ؟

وَاعَجَباه مما يشعر به الساعة !

إنه ليحسُّ الظمأ أبلغَ الظمأ إلى عاطفةٍ ترامىَ به عهدها ، فهو يبحث عنها جاهداً فى ألفاف الماضى السحيق ، ذلك الماضى الذى طوته الأيام ، ونسجت عليه العناكبُ خيوطَ النسيان !

إنه ليطوِّح بذاكرته فى أعماق عهده الغابر ، ذلك العهد الذى كان ينعَم فيه برعاية أمه ، قبل أن تودِّع الحياةَ الدنيا ، راحلةً إلى العالم الآخر . . .

أمستطيعٌ هو أن يتمثَّل ذلك الحنان الذى تذوَّقه فى كَنَف أمه ؟

إنه ليخترق الآن ما تكاثف من حُجُب الماضى ، فتلوح له أشباح أحلام غامضة تائهة ، فيذكر كيف كانت عيناه الدقيقتان تَرْنُوَان إلى وجه طَلْق بسَّام ، وكيف كان يحسّ ذراعين مبسوطتين تلتفان حوله ، فتضمانه فى ترفق ولطف .

ولبثَ الفتى حيناً تَشْرُدُ به الذكريات إلى ذلك العهد القصىّ ، وكأنه فى زورق ينساب على صفحة الماء ، والهواء رُخَاء ...

وبغتةً شعر بالجو يكفهرّ ، وبالإعصار يَهُبّ جارفا يثير الموج ، فإذا بالزورق ينقلب به ، وإذا هو يتخبَّط فى ملتطَم العُباب .

وبينا هو يتقاذفه التيَّار ، طالعه وجه ذو عينين سوداوين مغرقتين فى السواد ، واسعتين بالغتين فى السعة ، تَشِعُّ نظراتهما فتبعث الوَحشة والفزع ... وما أسرع أن استبانتْ له فيهما عينا زوج أبيه الأولى ، فَنَدَّتْ منه صيحة مختنقة ، وألفَى نفسَه يغطِّى وجهه بكفيه ، يحاول أن يحجُبَ عن عينيه تلك النظرات ...

ما بالُ هذه الذكْرَيات الشاردة تساوره الليلة ؟

وما بالُ هذه الإحساسات الغريبة تُراوِدُه فى غير هوادة ؟

وَيْحَه من تلك الذكريات المتناقضة ، يختلط فيها الصفاء بالكدر ، وتشتبك فيها الرهبة بالإيناس ، ويتلاقى فيها حَنان الأمومة ورهبةُ زوجة الأب ؟ !

لقد كان منذ قليل فى صحبة زوج أبيه الأخرى ، تلك التى لم يَلْقَ على يدها شرًّا قط ، بل تلك التى أَنِسَ معها بجلسة هدوء وصفاء . ولكنه يحسّ فى وليجة نفسه بأن هذه المرأة على الرغم من ذلك كله أشبهُ ما تكون بطِلَسْم مستغلِق ، تتنازع فيه الطمأنينة والقلق ، ويتقاتل فيه الموت والحياة !

أتُراهُ يعجِز عن مجابهة ذلك الطِّلَسم ، والوقوف منه موقف الصامد الجسُور؟ أتراه يظل أبداً ، كما كان فى عهده الأول ، ذلك الطفل المضطهَد ، ذلك الصبى المعذَّب ، حين كان يستنيم للضيم ، ويصبر على الأذى ، لا يَدَ له بمكافحة ودفاع ؟

لا فِرَارَ اليوم من وجه المغامرات ، ولا خوف من مجالدة الصعاب ، فإنه اليوم غيره بالأمس ، مِلء إهابه الفتوّة وصدق العزم ، وملء نفسه الثقةُ بالنفس .

ونهض الفتى عالىَ الهامة ، بارزَ الصدر ، يستنشى نَفَحات النسيم ، وهو يضرب بقدمه أديم الأرض ، ويشقّ طريقه فى غَمَرات الظلام ...

وجرت الأيام فى عِنَانِها ، وألفى الفتى نفسه يتشمر مهتَمًّا بشئون زوج أبيه ، حتى استطاع أن يؤمِّنَ حياتها فيما يستقبلها من أحداث الزمان .

واطمأنت نفسه بأنه قد أدَّى الواجب على خير ما يرام ... وما له لا يرى ذلك واجباً عليه ؟ وهل هذه المرأة إلا أرمَلَة مَهِيضة الجناح ، ضعيفة الجانب ، رمت بها الأقدار هذا المَرْمَى ؟

أليس لِزاماً عليه أن يأخذ بيدها ، رفقاً بها ، ورعاية لحرمة أبيه ؟

أمَّا الآنَ وقد أنجز مهمَّته ، فما عليه إلا أن يَبِيتَ على رحيل ... وإن موعده الصبح ، أليس الصبح بقريب ؟

ولكن عليه ألا يُغْفِلَ زيارة المرأة ساعة أو بعضَ ساعة ، قبل أن يفارق القرية ، فليمضِ إليها من فوره يلقى عليها تحية التوديع .

وكان الوقت عَشَاء حين أقبل على القاعة ، وهى فى سكينة وهدوء ، لا يحسّ فيها ما كان يحسّ قبلا من أصداء الندب والعويل ، تتردد فى تزايل وخفوت .

واسترعى نظره مصباح جديد صافى اللَّهَب ، رأى فى ضوئه أثاث القاعة على شىء من التنسيق .

و بدتْ له زوجُ أبيه ، طلقة المحيَّا ، وادعة الأسارير ، يستبين وجهها فى إطار من خمار أسودَ قشيب . وكانت على الرغم من رداء الحِداد مهندمة الزِّىّ . فلما تبادلا مألوف التحية ، ألفى الفتى قدميه تسوقانه إلى الصُّفَّة ذات السجَّادة ، فأخذ فيها مجلسه ، و بعد قليل قَدَّمتْ المرأة له القهوة فى قدح أبيه المختار ، فتناوله فى زهو واعتزاز ، وكان وهو يترشَّف ما فى القدح يجد له أطيب المَذَاق .

وقعدت المرأة على الحصير ، قريبةً من الفتى ، وشرعت تطارحُه أطراف الأحاديث ، فانطلق الفتى يصف لها ما صنع من أجلها ، وما دَبَّر

لمستقبلها ، وراح يؤكد لها أنها لن تصادف فى حياتها ما تخشاه ، فعقّبت المرأةُ تقول :

إنى مطمئنة إليك ، وما دمت أنا فى رعايتك فلا يصيبنى مكروه ... كان أبوك بى شَفِيقاً ، وأنت سرّ أبيك !

ثم حدّقتْ فيه قائلة :

عجيبٌ هذا التشابهُ بينك وبينه : هامَتُك ، قامَتُك ، عمامتُك ... سأصارحُك بما يدهشك . إنك إذ قَدِمْتَ ليلةَ المأتم علىّ ، ووقع بصرى عليك ، راعنى أمرك ، فقد خُيّل إلىّ أن أباك قد بُعِثَ من مَرْقَدِه حيّا ، وأنه قد نفض عنه أكفانه ، وحضرَ يشهَدَ مأتَمَه .

فهمهم الفتى يقول :

أكذلكِ تَرَيْنَنِي مُشْبِهاً أبى ؟

فأجابته :

كل الشبه ... لكأنه أنت ... حتى فى مشيتك ، حتى فى شَارتك ، حتى فى إشارتك !

ثم نهضت وهى تقول :

انتظرْنى لحظات ...

وما هى إلا أن رجعت إليه تحمل مُطْرَفاً مُوَشًّى بين يديها ، وقبل أن يدرك مرادها ، ألقت بالمُطْرَفِ على كتفه ، وهى تسوّى

حواشيه على صدره ، وتقول :

هكذا كان أبوك يتلفّع بمُطْرَفه هذا .

ثم جعلت ترنو إليه ، وهى تردد :

يالله ! ... كأن أباك الشيخ أمامى الآن ... ولكن شيئاً واحداً يُعْوِزك !

— أىّ شىء هو ؟

— لحيته ... فلقد كان ذا لِحْيَة مشذَّبة يُعْنَى بها أشدَّ عناية .

فابتسم الشاب يقول :

اللحى جميلة لمن يرغب فيها .

— إنها زينة الرجال ، تُسبغ عليهم البَهاء والرُّواء ، وتكسوهم المهابة والجلال .

وأحسّ الشاب بيده تتعالى إلى ذقنه يتحسسه ، مهمهما :

مهما يكن من أمر ، فبينى و بين أبى فرق !

— أىّ فرق تقصد ؟

— السنّ ... لقد كان أبى شيخاً !

— أما أنت فشابّ ... لقد جمعتَ بين فتوّةِ الشباب وحُنكة الشيوخ ... إن الناس جميعاً يتحدثون بما لك من عقل وحكمة ، و يتناقلون عنك أطيب الأخبار !

— ماذا يتناقلون عنى ؟

— لقد بنيتَ لنفسك فى قريتك التى رحلتَ إليها مكانةً جعلت اسمَك يدور فى المجالس .

— ما كان ذلك ليتاحَ لى ، لولا عونُ الله !

— طالما ذكرك أبوك ، وشد ما آسَفَه رحيلك ، وكانت أمنيته أن تعود إليه لتعينه على أمره فى شيخوخته .

فأطرق الشاب هُنَيْهة ، ثم قال :

لم يكن يسيراً علىّ أن أعود إليه ... لقد كان بيته جحيما تتلظَّى !

فلما سمعت المرأة هذه الجملة ، أخذت أناملها تعبث بأطراف ردائها ، وهى تقول :

أما زلتَ ترى البيت كما كان جحيما ؟

وهنا وجد الفتى نفسه ينهض ، وقد أنهَى إلى أرمَلَة أبيه إزماعَه الرحيل ، وأعرب لها عن أطيبِ تمنياته .

وتواقفَا لحظة صامتين ، وأعينهما مشتبكات ...

وألقى عليها الفتى تحية الوَداع ، وانطلق يطلب الطريق .

وما أسرع أن اتخذ سبيله إلى البيدر المهجور ، تؤنسه سماء صاحية ، ويرفرف من حوله نسيم دافىء مُشْبَع بأريج الزروع ، وبين يديه فيض من نور القمر الفتِىّ .

وجاز الفتى فى طريقه بغدير رقراق ، فمكث أمامه غير قليل ، ثم مال

عليه يتوسَّم وجهه فى مرآة الماء ، ووجد يده تمرّ على ذقنه ... وما عتَّم أن ندّت منه ضحكة خفيفة أشرق لها سيماه ... لقد تراءى له وجهه ، وقد اكتسى لحية مَهِيبة مهندَمة كلحية أبيه الراحل ، وما كادت تلوح له صورة أبيه حتى تداعت المعانى فى خاطره ، فسرعان ما تزايلت تلك الضحكة ، لِتَفْسَحَ مكانها لمَسْحَة من الجهامة والاكتئاب يبعثها تفكير عميق .

وفَصَلَ عن الغدير ، ماضياً إلى البيدر المهجور ، يقتعد الحجر العريض ، ويراجع ما دار فى ليلته من حديث أرملة أبيه .

وأنبَهته من تفكيره هَبَّة من النسيم الدافىء داعبتْ كتفه ، وإذا هو يتبين مُطْرَفَ أبيه الذى منحَتْهُ المرأة إياه !

ودارتْ مواكبُ الذكريات أمام عينيه ، فألفى نفسه يرجع القهقرى إلى عهود الصبا ، وبدا له طيف أبيه وهو على الصُّفَّة ذات السَّجّادة جالس يرتشف القهوة من ذلك القدح الأثير ، وقد تهدَّل على كتفيه هذا المُطْرَف المُوَشَّى . فأما هو فكان فى ذلك الحين يقف بِمَنْأًى من أبيه وِقفة الذلة والصَّغار ، وعلى الحصير بجانب الصُّفَّة تجلس امرأة أبيه الأولى ، كأنها أفْعَى تنفُث من نظراتها إليه سُمّاً زُعافاً ، ولا تدع فرصة إلا تجَنَّتْ عليه ، وكادت له ، فأثارت عليه أباه ، وأوغرت صدره ، ونَصَبَتْه هدفاً لألوان من الإيذاء !

ما أعجبَ هذه المقادير !

أكان يخطر بباله أن يوماً يُمْسِي به ، وهو مقتعِدٌ مجلسَ أبيه ، يشرب القهوة فى قدحه ، و يتلفع بمُطْرَفِهِ ، وعن كَثَبَ منه ذلك الحصير تجلس عليه زوج أبيه فى تلطف وملاينة واستسلام ؟

حقا ليست هذه زوجَ أبيه الأولى ، تلك التى أذاقته مرارة المهانة والإزراء ، ولكنها على أية حال زوج لأبيه ، مكانها منه مكانُ تلك الزوجة الراحلة !

على رغمٍ منه يجد فى طوايا صدره ثورة جامحة تبتغى التَّشفى والانتقام ... ولكن ممن ينتقم ويتشَفَّى ؟

إن أرْمَلَة أبيه هذه تتألَّفُه ، وتتوددُ إليه ، وتَحُوطُه بأقصى ما تملك من أسباب التكريم والإعزاز ...

بَيْدَ أنه لايدرى : أيكون ذلك منها رِياء ومخادعة ؟

أيكون وراء هذا البريق الخلاب تبيت لمكيدة وعُدوان ؟

أينسى أنها مهما يكن من أمر ، فهى « زوجة أب » ؟

أوَ ينسى أنها عنوان شُؤم ، ونذير شر وأذى ؟

ألم تقض على رجلين اثنين ، سلبَتْهما المالَ والرُّوح ؟

حيرة بالغة تكتنفه !

كيف تسوِّل له نفسه أن يظن الظنون بهذه المرأة التى تبسط له رحابها أنسا ومصافاة ، و يجد فى مجلسها من المتعة والنعيم ما لا عهدَ له به من قبل ؟

ونهض ضائقاً بنفسه ، تصطرع بين جوانحه شتى النزعات .

ودفع بخطاه إلى الغدير ، يَنْضَح وجهه بالماء .

. . . وكان أن رحل الفتى إلى القرية البعيدة التى اتخذها له وطناً آخر ، إلا أنه لم يمض عليه فيها شهران ، حتى استقبلته قرية أبيه عائداً .

وسَرْعان ما طرق الدار ، متجهاً إلى القاعة ، وئيد الخطو ، يطلق سَعْلة يحاكى بها سعلة أبيه المألوفة .

وما هى إلا لحظات ، حتى هُرِعَتْ إلى القاعة أرملة أبيه ، فما إن واجهته حتى انبعثتْ صارخة ، وهَمَّت أن تتراجع ، فأوشكت أن تتهاوَى ، فعَجِلَ إليها يأخذها بين يديه ، واتجه بها إلى الصُّفَّة يُذْهِب عنها الرَّوْع ، وهو يقول :

ماذا بكِ ؟

ورفعت المرأة عينها إليه ، وقد عاودها بعض الطمأنينة ، فهمهمت تقول :

حَسِبْتُكَ الشيخَ نفسَه ... أنت الآن هو لا ريب . هذه اللحية التى كستْ عارِضَيْك لم تدَعْ بينك و بين أبيك مِنْ فارق .

وأقبلت عليه تتوسَّمه ، كأنها تستوثق وتتثبت ، خشيةَ أن يكون ما تراه خِيالها طيفاً من عالم الرُّؤَى والأحلام !

وواصلتْ قولها فى اهتياج :

إنى لأشَمُّ منك رائحته ... رائحتَه عينَها ... رائحة السَّعوط الذى كان ينتشقه .

— لقد هفت إلى هذا السَّعُوط نفسى ، إذ وجدتُ فيه وقاية من البرد ، وعصمة من المرض .

— كذلك كان يقول أبوكَ .

وما أسرع أن أُعِدَّت القهوة ، وما أسرع أن وجد الفتى نفسه يحتسيها فى قدح أبيه الأثير .

وتربعت المرأة على الحصير ، قريبةً من الفتى ، ترقُب حركاته فى تطلع ملحوظ .

وشرع الفتى يجلو للمرأة سرَّ عودته ، إذ علم بنزاع قام بين إحدى قريباته وزوجها ، فجاء يحسِم هذا النزاع ، ويعالج إصلاح ذات البَين .

فقالت المرأة رنانة الصوت :

أنت رجل لا تقصِّر فى واجبك . ولقد صرت للأسرة عميداً ... أبقاك الله وحماك !

فعقَّب على قولها ، عَطُوفَ اللهجة :

وكيف حالكِ أنتِ ؟

فأمسكت المرأة عن الجواب ، بضع لحظات ، وهى ناكسةُ الرأس ، ثم قالت فى نبرات حزينة :

الحمد لله على كل حال .

— أثَمَّةَ جديد ؟

فتهدَّج صوتها قائلة :

لا جديد .

— كأنى بكِ تخفين عنى أمركِ .

— ليس من شىء أخفيه .

وتخاذلت لهجتُها ، وإذا هى تنفُض نفسها فى نَشِيج محتدِم ، ووجهها بين يديها تحجُبه .

فانحدر الفتى إليها ، يأخذ بجوارها مكانه ، وهو يربِّتُ كتفها ويقول :

صارحينى ... ماذا جرى ؟

فاندفعت فى نشيجها تقول :

لا شىء ... لا شىء !

فصاح بها قائلا :

قسَماً لَأعْلَمَنَّ الخبر !

وبعد لَأْىٍ قالت المرأة ، وهى تَغُضُّ من بصرها :

سيبيعون الدارَ بعد أيام ... دارنا هـذه ... دار أبيك ... تلك التى كانت أعزّ شىء عليه فى الوجود !

— كيف ؟

— لقد وقع عليها الحجز ، وفاء لدين قديم .

— لماذا لم تخبرينى ؟

— كيف أبيحُ لنفسى أن أزعجكَ بشأنى ، وقد تركتَنى عائداً إلى قريتك الجديدة ؟

— لم يكن بُدٌّ من عودتى إليها ... ولكنى لا أهمل أمرك أبداً ... لن تُفْلِتَ من أيدينا دارُ أبى !

فرَنَتْ إليه ، ورنا إليها ، ووصلت بينهما تلك النظرة العميقة الجيَّاشة ، وإذا المرأة تُهْوِى عليه ، فتُشبِع يده تقبيلا ، وهى تقول :

ما دام لى قلبك الكبير ، فلن يمسنى سوء .

وتلاقتْ نظراتهما ثانية .

وما هى إلا أن أحسَّ الفتى بأن المرأة تقبِّل جبينه قبلة تتقد من عطف وحنان . وإذا هو يطوِّقها بذراعيه ، فتنقاد له ، مخفيةً وجهَها فى صدره ، وهى تتشبَّث به !

ومنذ هذه الليلة استقرَّ الفتى فى دار أبيه ، مع تلك المرأة ، يقاسمها العيش .

وكان لا يبرح الدار فى يومه إلا لِماماً ، حين تلجئه مطالب الحياة .

على أنه كان فى بعض الأماسِىِّ يرتقب ساعة من هَزِيع الليل ، فيخرج وقد أوَى الناس إلى مساكنهم ، متسللا إلى ذلك البَيْدر المهجور ، يقضى فيه طويلا من الوقت ، وهو جالس على الحجر العريض ، يرقب السماء ، شاردَ اللب ، موزَّع الخاطر . . .

وكثيراً ما أخذَتْه انتفاضة زلزلتْ كِيانه فى مجلسه ، فجعل يَدُقُّ صدره بيده ، يغالب ما احتبس فيه من نزعات ومشاعر .

إنه ليحس بأن فى طوايا نفسه بُرْكاناً يتضرَّم ، ويوشك أن يقذف بالحُمَم ، وعبثاً يحاول أن يسد فُوهَته ، أو يخمد جَذْوَته !

وإنه ليفزَع إلى الغدير ، ناظراً فى صفحته تحت ضوء الكواكب ، فيتجلى له وجهُه أمامَه ، تكسوه تلك اللحية المهندمة ، فيلمِسُ أطرافَها بأنامله ، ثم لا يلبث أن تعاجله ثورة عارمة ، فكأنه يريد أن يقتلع تلك اللحية من جذورها ، لا يُبقى منها ولا يَذَر .

لقد اتخذ اليومَ لنفسه حياةً طابَعُها عزلةُ الناس ، فهو يتجنب مَرْآهم ما وَسِعه أن يتجنَّب ، حتى ليحاول وهو يسلك طريقه أن يتنكَّبَ عن مواجهة أقرب ذويه ، وقد علت سَحْنته صلابة وجهامة ، حلت محلّ ما كان قبلاً من وداعة وتطلُّق . فأما عيناه فكانتا ترميان بنظرات تتلظى فيهما الشهوة والشرّ ، بعد أن كانت هاتان العينان تترسَّل منهما نظرات الطهر والصفاء !

إلى أىّ طريق فى حياته هو مَسُوق ؟

تُرَى أيةُ نهاية ترتقبه لتختم حياته تلك ؟

أصائرٌ هو فى صحبة هذه المرأة حيث صار زوجاها الراحلان ؟

أمستطيعةٌ هى أن تقضى عليه قضاءها عليهما من قبل ؟

من تكون هذه المرأة ؟

إنها زوج أبيه ، فى مقام أمِّه !

يا سُوء هذه العلاقة التى تربط بينه و بينها اليوم !

حتى متى تبقَى هذه العلاقةُ الشنعاء ؟

أولئك هم الناس يتهامسون به ، ويجرى ذكره فى حديثهم مَشُوبا بالأقاويل !

ألا يملك إخماد هذه العاطفة الهوجاء التى شبَّت بين جوانحه لتلك المرأة ؟

عَجَباً لهذه العاطفة التى تلتقى فيها المتناقِضات !

لا سبيل إلى إنكار أنه يهواها ، بل إنه لا يُطيق عنها بُعداً ... فما بالُه على الرغم من ذلك كله ، تثور به الرغبة فى أن يعصِف بها و يقضى عليها ؟

وانتهى الأمر بالشابّ إلى أن يَلزم الدار ، حبيساً لايفارقُها فى ليل أو نهار . .

واتخذت هذه الدار صِبغة مرهوبة فى القرية ، فرانت عليها كآبة ووحشة كأنها قبر أخطأ مكانَهُ ، فاستقرَّ بين دُور الأحياء !

وكان الناس يجوزون بتلك الدار ، فينظرون إليها على أنها خَرِبَة من الخَرِبَات ، تعمُرُها أرواح الشياطين !

وفى أُمْسِيَّةٍ من الأماسىّ الساجية ، تَفَزَّع أهل القرية ، فتدفَّقوا من

أعماق الدُّور ، إذ رأوا ألسنة النار تتعالى من تلك الدار المشئومة ، فتحيط بها من كل جانب .

وأقبل جمع من رجال القرية ، يحاولون اقتحام الدار ، وتخليص من فيها من السكان ، فهالهم أنهم لم يسمعوا نَامَة استغاثة ، ولا حركة فِرار . وألفَوْا الباب محكَم الرِّتاج ، فانطلقوا يقرعونه ، فانبعث من جوف الدار صوتٌ ثائر ، كأنه هَذَيان محموم ، وهو يردد :

لا تقربوا الباب ... دعوا الدار تأكلها النار ! ...

وجعلت جحافل اللَّهَب تَزْفِر وتَجِيش ، والناس يتراجعون من خشية ورَهَب ، كأنهم يهرُبون من نار الجحيم !

مجنون

أمجنونٌ أنا لا عقل لى ولا اتزان ؟

أم أن عقلى موفور لم أفقِدْهُ ، وأن ما أعانيه ليس إلا أثراً لتهافُتِ الأعصاب من فرط الكدّ والجهد ؟

فما مستطاعى أن أبلغ فى هذا التساؤل فصلَ الخطاب ، وما يسوغ لى وأنا طبيب مكين ، سَبَرْتُ أغوار العلل ، واكتنهت أسرار الأدواء ، أن أقف حِيال نفسى قَلِقاً حيران ، لا أقطع برأى ، ولا أستنيم لحكم ...

ولكن فيم جزعى ، وليست حالتى إلا صورةً من طابع الحياة التى نحياها ؟

إنها حياة تضطرب فيها الخواطر ، وتصطرع الآراء ، فلا ترى الأحكام إلا أطيافا وأخيلة ، ولا تكاد تطمئنّ فيها إلى حقيقة واحدة .

على أن اضطراب الحياة واصطراعها أمر لا غرابة فيه ولا شذوذ .

من أين للمجتمع أن يقرر تلك « الحقيقة الواحدة » المزعومة الموهومة ؟

ما كانت الحقيقةُ شيئاً مجرَّدا قائماً بذاته يهبط علينا مَهْبِطَ الغيث .

هى من صَوْغ أيدينا ، وصُنْع أنفسنا .

كلٌّ منا يصوغ حقيقته ، تهديه عوامل شتى من بِيئة وتجربة واستعداد جُسْمَانىّ وعقلى ، موهوبٍ أو مكسوب .

كل منا يصنع مبدأه وَفْقَ ما تاح له من حظوظ وملابسات ، وما رُكِّب فيه من مِزاج .

حتى هذه الحقيقة الخاصة بكل فرد ، ليست هى « الحقيقة الواحدة » له على اختلاف عهوده وأحواله .

شأنُ أمسِ غيرُ شأنِ اليوم ، وإن لغدٍ شأناً غيرَ ما كان وما هو كائن !

بل إن اللحظة تِلْوَ اللحظة لقمينة أن تستقبلَ طارئاً من الأمر تتغير به الحقيقة من وجه إلى وجه ، فإذا الذى أصبح صدقا أمسى من الكَذِب الصُّرَاح ، وإذا الذى كان مطوِيًّا فى جُنْحِ الليل صار واضحاً كضوء الصبح المُسْفِر .

مهما يكن من أمر ، فقُصَارَى ما أستطيع الحكم فيه — حين أُحَبِّر هذه الأسطر — أنى رجل مريض . . .

منذ أشهر ، وأنا أسيرُ العقاقير .

ألستُ بلا ريبٍ فى عِدادِ المرضى ؟

الواقع أن هذه العقاقير لا تزيد على أن تكون شُكولا من المُنَوِّمات

والمخدِّرات ، أحاول بها أن أهرُبَ من ألم الشعور بالأوجاع والآلام .

هذه الأوقات التى يسيطر فيها المخدِّر على أعصابى هى وحدها فترات راحتى وسكينتى . وطالما فزِعْتُ إليه حين يشتدّ كربى ، وأعيا بأمرى ، ولكنى أشعر على الرغم من كل شىء بمقت وزراية لذلك المخدّر الذى يخدعنى عن نفسى ، ويسر لى الفرار إلى طمأنينة مكذوبة ، وراحة زائفة ...

إنى لأُوثر العذاب فى يقظتى ووعيى ، على أن أكون أُلعوبة تعبَثُ بها الأوهام والأخاديع .

فى عذاب اليقظة والوعى أستطيع أن أدرك شأنى ، فأفكر وأقدّر ، وأفحص وأعمل ، لا يفوتنى مما أنا فيه قليل ولا كثير ، ومن ثَمَّ ألتمس السبيل إلى مَخْرَج أطمئن به ، وقرار أسكن إليه .

فى عذاب اليقظة والوعى أشعر بأنى كائن حىّ ، توافرتْ له عناصر الحيوية من شعور وإحساس ، فأما تحتَ سلطان هذا المخدِّر فأنا جثة هامدة ، لا يُعْوِزُها إلا الكَفَن ، لتكون كُفْئاً لِغيَابة الرَّمْس !

إن طلبتَ السبب ، فيما أعانيه ، عرفتَ أنه امرأة . . .

أفى ذلك تَتَرَيَّب ؟ أم منه تتعَجَّب ؟

امرأة هى السببُ كلُّ السبب !

شخص آدمىّ تافه كهذه الأُلوف المؤلفة من الخلائق التى تزدحم بها الأرض ازدحامَ الشقوق بجحافل النمال .

ولكن أتافهةٌ هذه المرأة حقًّا ، وقد صيّرتْنِي إلى هذه الحال التى أكابدها بينَ مَضّ الآلام ووطأة القيود ؟

قد تكون امرأة غامضة معقّدة ، تَزْخَر بقوى عارمة .

وقد تكون ضَحْلة لا استعصاء فيها ولا عُمق ، ولكنها تصوّراتى وأخيلتى هى التى حاكتْ حولها تلك الألفافَ من ذلك التعقد والغموض .

أأكون قاسياً عليها ، عنيفاً بها ، مسرفا فى الظلم والتجنّى ؟

يا طالما رَثَيْتُ لها ، ويا طالما أنحيتُ باللائمة على نفسى من أجلها !

أما اليوم ، فما أشوقنى إلى أن أعتقد بأنى كنت لها ظالماً ظلماً بيّنا لا ريبَ فيه .

ما أحبّ إلىّ أن يكون ذلك !

إذن لتخلّتْ عنى آلامى ، ولَانزاحتْ عن نفسى غُمّتى .

حقًّا هى التى أسلمتْنِي إلى ذلك السجن الخانق الذى أفنَى فيه .

ولكن أليس لها أن تقول إنى أنا الذى حرمتَها متعتَها فى الحياة ؟

كلانا علةُ عذاب الآخر ، ومصدر بلائه !

وكل ذلك من جَرّاء ما يسمونه «الحب» ... ذلك الطائش الأخرق الذى يخبط خَبْطَ العشواء ، ويَصُبُّ الغارة الشعواء !

كِلانا يفنىَ وَجْدا بصاحبه ، وكلانا يذوب جُهداً فى التنكيل به .

أما حبى إياها فحقٌ لا يشوبه خلاف .

وأما حبُّها إياى فإنه على مِثْلِ ذلك يقيناً وقوة .

أشهى ما تشتهيه نفسى أن تلتحم شفاهنا فى قبلة متضرِّمة ، تختنق بها أنفاسنا معاً . . . قبلة نشتفُّ بها زبدةَ النعيم ، فتسلمنا إلى راحة الأبد .

أجل ، قبلةُ الموت ... هى غاية ما أصبو إليه . . . وأكبر اعتقادى أن صاحبتى تَشْرَكنى فى هذه الأمنية الغالية !

قبلة الموت ...

أمنطقُ عاقل هذا ؟ أم هذيان مأفون ؟

إليكَ قصتى ... ولكَ مَقْطَعُ الرأى ، وفصلُ الخطاب .

كنتُ طبيباً نابهاً فى مهنتى ، تَفِد علىَّ أفواج المرضى ، مختلفةَ الطبقات والأنواع ، من رجال ونساء .

وكانت النساء ضروبا وأفانين ، بينهن المِلاح اللواتى يَتَضَوَّأْنَ وسامة وَيتضوَّعْنَ فتنة ، ولكن عيْنِي لم تَعْلَقْ بإحداهن يوماً ، وقلبى لم يخفُق لواحدة منهن لحظة .

ومن بين هؤلاء من بَثَثْنَ لى شِباكَ الحب ، بَيْدَ أننى رددتُ هذه الشباك فى غير عناء ، ولم تظفر منى إلا بنظرة إشفاق .

وليلةً دُعِيت إلى عيادة مريض ذَرَّفَ على الستين ، قيَّدالشلل أوصاله .

فى تلك الليلة وُلِدَتْ المأساة !

لهذا المريض زوج ما إن رأيتُها حتى بدتْ لى كأنها الصورة الجامعة لمفاتن الجمال ، الصورة التى كنت أنشُدُها دون وعى وقَصد فى مخيِّلتى وفى وليجة نفسى ، الصورة التى تؤلف عندى المثل الكامل لجاذبية الأنثى .

أستطيع أن أؤكد — دون تهيُّب — أن هذه الإنسانة وحدها الخليقةُ بالحبّ دون سائر النساء ، بل إن الحبَّ نفسَه ما كان إلا لها ، وما خُلق إلا من أجلها .

لا تنتظر منى أن أُواتيَكَ من وصفها بما يصور لك فتنتها ، وما يقوم برهانا على صدق تقديرى لها .

فإن ألحتَ فى أن أصفها لك ، فلستُ بقادر على أن أُنيلَكَ بُغيَتَك إلا بشىء واحد ، هو أن تَشُقَّ صدرى ، وتَفْرُقَ بين ضلوعى ، فتنتزعَ من مكانِهِ قلبى ، لتتبين فيه من فورك صورةَ من أحببتُ ماثلةً كاملة .

آنستُ من صاحبتى رُوحَ استجابة لعاطفتى . . . فكثيراً ما أخذتْ بيدى ، بعد عيادة زوجها المريض ، إلى حجرة مجاورة ، تطارحنى الحديث فى تلطف ، وتناقلنى النظرات فى عذوبة وصفاء .

لا أدرى على وجه الدقة : كيف توضَّح بيننا هذا الحب ، واستبانت لكل منا لواعِجُه ؟

ثَمَّةَ مقدمات . . . ليس من ذلك بدّ !

وثَمَّةَ تطورات . . . ليس فى ذلك ريب !

هنالك نقطةُ بدء ، وهناك سلسلة مشاهد . . . هذا كله لا مَعْدَى عنه ، ولا نزاع فيه !

إن أَحْدَاثَ الحب بين العشاق في ترتيب فصولها ، وتساوُقِ مشاهدها ، والخلوص إلى النتائج من المقدمات ، شأنها شأنُ الروايات والمسرحيات سواء بسواء .

هذا قول منطقىّ أصيل ، وهذا ما كان فى مأساتى . . .

ولكنى أقف عاجزاً عن أن أكون راوية لقصة حبى .

الروائىُّ الفَطِن هو الذى فى مقدوره أن يصوغ هذه القصة فى أسلوبها الطبيعىّ وحبكتها الفنية ، مسبوكة الأطراف ، مُسَلَّمَةَ الأوصال .

ذلك شأن الروائىّ الناجح ، فأما أنا فَمِنْ أين لى أن أكونَه ؟

أمحبٌّ ناجح أنا حتى أتطاولَ إلى هذا المقام ؟

أبقيتْ لى بقية من فطنة وتدبر ، حتى أصوغ قصتى موفورة الحظ من التساوق والتناسق ؟

ألم أقل إنى مجنون ؟ أو على الأقل مغلوب على أعصابه ؟

أيُّنا كان أسبقَ بالحب لصاحبه ؟

أأحببتُها أنا بادئاً ، فشعرت هى ، فاستجابت ؟

أم أحبَّتنى ، كحبى لها ، فتلاقَيْنا على هَوًى ؟

وأىُّ شأن لهذا البحث والتمييز ؟

الجديرُ بالذكر فى هذا الصدد أنى لم تكَدْ زوراتى لذلك البيت تتعاقب ، حتى كنت أنا وصاحبتى فى حبائل غرام عنيف . . .

أيسوغ لى أن أعترف بأن هذا الحب كان وصمةً آثِمَةً فى جبين المهنة التى شَرَّفتْنِى بالانتساب إليها ؟

ليكن الأمر كما يكون .

فمهما يختلف الرأى والتقدير ، فإن هذا لا يغير شيئاً من « الحقيقة الواقعة » .

تَشِيعُ فى المجتمع ألفاظ يتشدَّق بها الناس ، ويحُوطُونها بهالات من الإكبار والتقديس .

وإن المجتمع ليتخذ فى هذا الصدد لَبُوسَ طاغية حاكم بأمره ، يَشْرَع الحلال والحرام وَفْقَ هواه .

فليفعل المجتمع ما يشاء ، وليقرر ما يريد ، وليكن مَثَلُه كمثل الأقطاب الدينيين فى العصور الوسطى ، هؤلاء الذين ادَّعَوْا لأنفسهم القدرة على الإباحة والحظر ، والمنح والحرمان . هؤلاء الذين حَسِبوا أنفسهم قُوَّاماً على أبواب الجنَّة ، يبيعونها لمن يَهْوَوْنَ بالشِّبْر والذِّراع !

هل أفلح أولئك الحاكمون المسيطرون فى أن يغيِّرُوا مَجْرَى الحياة ، ويُحيلوا طبائع الناس ؟

إن الدنيا لتسير وتَمْضِى فى سيرها ، لا تعبأُ بشىء ، ولا يتعاصَى عليها شىء !

إن كان ثَمَّةَ من حاكم يأمر فيطاع ، وينهى فيَرْدَع ، فما ذلك إلا القدر... ذلك هو المسيطر الغلاّب ، تعنو له الجِباه ، وتخِرّ له الجبابِرُ !

لماذا أُحْسَبُ جانياً فيما كان منى ؟

ألستُ مسيَّرا مُجْبَراً ، تزجُّنى يدُ القدر ؟

ومن ذا الذى يردُّ القدر المُتاحَ ؟

ربما كنتُ فى أعين الناس موصوفاً بالنذالة والخِسَّة ، على حين أنى أرانى لم أتعدَّ حدّا ، ولم أستجبْ إلا لنوازعَ طبيعيةٍ لا طغيانَ فيها ولاشذوذ ، نوازعِ الاستمتاع بما وهبتنى إياه الحياةُ من قُوًى وحُرِّيَّات .

يخيَّلُ إلىَّ أنى أسمع همسات سخرية وازدراء ، وهمهمات تعجُّب وإشفاق ، وكأنى أتبين فيما أسمع قول قائل :

وَيْحَه من مخبول !

إن المخبول ليتابع حديثه غير لاوٍ على لوْم ، فَيُفِيضُ فى هذيانه ما وسعه أن يُفيضَ . . .

كانت ساعاتُ الصفاء التى أختلسها مع صاحبتى ، نقضيها دائماً فى الحجرة المجاورة لحجرة الزوج العليل .

كنا نجلس تغشانا رُوحٌ غريبة من الحذر : قلب واجف ، نظرة قلقة ،

سمع مرهف لأقل نَبْأَة ؛ على حين تتشابك أيدينا ، وتتواصل أعيننا ، وتتراسل شفاهنا حينا بالحديث همساً ، وحينا باللَّثْم خَطْفا .

وكانت صاحبتى هى التى تُوحِى بأن تكون اللُّقْيَة على هذه الحال ، بل إنها لَتُصِرُّ على أن تكون عن كَثَب من زوجها ، لا تفصلهما إلا خطوات ، مع أن الدار كثيرة الحجُرات ، تتوافر فيها الخَلَوات التى لا تبعث قلقاً ولا تثير رِيبَة .

ولَشَدَّما ضِقْتُ ذَرْعاً باللقاء على هذا النحو . . .

فيم هذا الحَجْر على العاطفة ، والإحراج للنفس ؟

لِمَ نتلاقَ ، على رأسَيْنا سيفٌ مُصْلَت ، ينهانا أن نتحركَ إلا بمقدار ، وأن نَنْبِس إلا بحساب ؟

أرأيتَ إلى أُناس تُظِلُّهم حرب شنعاء ، ولا يطيبُ لهم أن يقيموا ولائمهم إلا فى العَراء ، والطائراتُ من فوق رءوسهم محلقةٌ منذرةٌ بالشر ، فهم يتناولون طعامهم على ترقب وتخوُّف ، وكان فى مكنتهم أن يفزَعوا إلى المخابئ الكَمِينة ، والمعاقل الحصينة ، يستمرئون فيها طعامَهم آمنين ؟

ذلك مَثَلُنا نحن فى ولائمنا الغرامية التى تحلِّق فى سمائها الخِيفَةُ والتوجُّس ، لغير ضرورة قاضية !

حَسْبُ الزوج أن يَسْعُلَ سَعْلة ، أو يبعث من فراشه نَأمة ، لكى تحتبسَ منا الأنفاس ، ويشملَنا انتفاض .

ولقد كنتُ فى هذه الساعات المشبوبة أنظر إلى صاحبتى ، فأتبيَّن فى مُحيَّاها إشراقاً وهّاجا يشِفّ عما تجيش به نفسها من نشوة ليس وراءها نشوة .

أما أنا فقد كنتُ فى بعض الأوقات يشتدُّ بى الضيق ، فأتهيأ للنهوض ، هامساً فى أذن صاحبتى :

فَلْأَرحل . . . فَلْأَرحل . . .

فتحدِجُنى ببصرها وهى تتغيَّظ ، كأنما تقول :

لقد عكرتَ علىّ صفو نشوتى !

فلا أرى مَناصاً من الإذعان لرغبتها فى إطالة الجلسة معها ، على ذلك النحو المَقيت .

ومن عجيبِ أمر هذه الإنسانة المعقَّدة ، أنها على الرغم من هُيامِها بى ، وإعزازها لى ، كانت بادية العطف على زوجها العليل ، وكان عطفُها محضاً لا رياء فيه ولا تصنُّع ، تسهَر على راحته ، وتوافيه بأسباب العناية والتعهُّد ، وتبذُل فى ذلك منتهى الوُسْع ، لا تألو جهداً فى تمريض وعلاج ، وإعداد للطعام والشراب ، حتى إنها لم تكن تبارح الدار إلا قليلا . . . كل همِّها مصروف إلى تدبير شئونها المنزلية على خير وجه وأهدى طريق .

وكثيراً ما رأيتُها وهى بجانب زوجها ، على حافَة السرير ، توسِّده صدرَها ، وتلاطفه فى حُنُوّ وولاء ، وتدلله كأنه طفلها الأعزّ . فأرانى قد

ثارت بنفسى غضبة وحَنَق ، فتلحَظ ذلك فى نظرات عينىّ ، فما إن تختلى بى فى الحجرة المجاورة ، حتى تبادرَ إلى سمعى ، تُسِرُّ إلىَّ قولها :

أراهنُ على أنك غيور !

— أبعدَ ما رأيتُه تطلُبين منى ألاَّ أغار ؟

— أتخشَى على مكانك من قلبى ؟

— إن القلب لا يتسع إلا لحبيب واحد .

— كنت أحسَب أنك أحكم وأحزم من التأثر بهذه الأمثال الشائعة !

— تريدين أن تسفّهى قولى ، وتزيِّفى رأيى ؟

— وأنتَ ؟ . . . إنك دائماً تريد بتلك المقاييس التافهة أن تُسَفِّهَ حبى ، وتزيف عاطفتى ! . . . لقد صدق حَدْسى فى مبلغ حُبِّكَ إياى !

— أتجرُئين على التهوين من شأن حبى ؟

— إنك تحبُّ كما يحب سائر الناس .

— وكيف تريدينى أن أحب ؟

— كما أحبك أنا !

— ناشدتُكِ الله أن تخبرينى : كيف تحبيننى ؟

— تسألنى كيف أحبك ؟ تسألنى كيف ؟ أليس لك طاقةٌ باستشفاف حبى على أى نحو يكون ؟ إنك لا تفهمنى ، ولن تفهمى ما حَييتَ !

وأقف قُبالتها ، وهى تلفِظ هذه الجملة ، ووجهها الفاتن تنطق قسماته

بالإخلاص فى القول ، والجدّ فيه . . .

وإنى لأقرّ بينى وبين نفسى بأنى لم أُوتَ قدرة على تفهّم كُنهِ هذه المرأة ، واستبطان ما فى نفسها من تعقد واستعصاء !

وأسمعها تقول :

خ[illegible]كَ فاتركنى . . .

فأشعر كأنّ نِياط قلبى تتمزق ، وأهوِى على يديها أستغفر .

وعلمتُ يوما أنها سافرتْ إلى « الإسكندرية » فى مهمّة من خاصة شأنها ، [illegible]عجبتُ لها :

لما[illegible] لم تنبئْنى بأمر هذه السَّفرة ؟

ولكنى قدّرتُ أنها فُوجئتْ بباعث السفر ، فلم تملك إبلاغى .

وقفوتُ أثرها إلى « الإسكندرية » وأنا أُمنّى النفسَ بِخلوة صافية هانئة ، فى نَجْوةٍ من بيت زوجها المريض .

إنها المرة الأولى التى أنعمَ فيها بجو هادئ ، لا تغيمُ سماؤه برعب ولا حذَر .

وقصدتُ من فورى فندق « وندسور » إذ كان فيما علمتُ مثواها المفضّل ، كلما سافرتْ إلى الثّغْر .

ولم يكذبْنى ظنى . . . فقد كانت هناك .

وطرقتُ باب حجرتها ، ثم دخلتُ فألفيتُها على وشْكِ الخروج ، فلما

وقع بصرها علىّ ، بدا على مُحَيَّاها دهش وتجهم ، وقالت :

أنتَ ؟

— أساءكِ قدومى ؟

— ماذا جاء بكَ ؟

— عجيب أن تسألينى ...

— لم أطلب منكَ أن تَقْدَم ، فَلِمَ فعلت ؟

— وهل تحسَبينى أنقل خطاى وَفْقَ أمرك ونَهْيك ؟

— كان عليك أن تحترم رغبتى !

— ورغبتى ... ألا احترامَ لها ؟

— لو تبصرتَ فى الأمر ، لعلمتَ أن رغبتى ورغبتك تلتقيان !

— بل إنك لتفرقين بينهما جهد مستطاعك ...

— ما أشدَّ مضايقتَك لى بهذا الجدل !

— لقد باغَتَنِى منكِ هذا الاستنكارُ لقدومى ... أىُّ جريرة فيما صنعتُ ؟ إنها لفرصة فريدة أُتيحَتْ لنا ، فما بالُك تأبَيْنَها ؟

— ما زلتَ تَلُوكُ منطق عامة الناس !

فثَار غيظى ، وقلت :

لم يهبنى الله إلا ما وهب الناسَ من منطق ، فماذا تطلبين أنت ؟

— إنى ليؤسفنى أن أسمع منكَ ما سمعتُ !

— وإنى ليؤسفنى أن أقر لك بعجزى عن الرقىّ إلى أبراج أفقك الرفيع !

— إنك تتوخّى طريق المشكلات بسوء تصرُّفك... تقوِّضُ صَرْحَ الحلم الجميل الذى نعيش فيه !

فصمتُّ برهةً أحدق فيها، تتنازعنى مشاعر حنق وألم وتحير .

ثم صحتُ :

أتأبَى بَينَ قضاء وقت معى فى هذا البلد ؟ أوْجِزِى الجواب !

فرفعتْ رأسها فى عزة ، وقالت :

أرفض ذلك !

— أَلِى أن أسأل لماذا ؟

— وتسألنى لماذا ؟

— ألا يَحِقُّ لهذا الغبىّ المتشرف بالمثول أمامك أن يستوضحكِ أمراً عَزَبَ عن فهمه الكليل ؟

— لستُ ممن يُعْنَيْنَ بتفطين الأغبياء !

فصرختُ ، وقد جاوز بى الغضب حَدَّ التمالُك :

كفى منكِ هذا الغرور... اسمعى !.. هذه آخرُ مرة ألقاك فيها ... إنها فراق بينى و بينك !

ورأيتها صامتةً كالتمثال ، ويداها معقودتان على صدرها .

فاستأنفتُ أقول ، وأنا أضرب المنضدة بِجُمْع يدى :

هل عندكِ من جواب ؟

فندّتْ عن التمثال حركة واحدة : اليدُ مشيرةً إلى الباب !

ووجدتنى أمرُقُ مروق السهم ، وأنا أنتفض انتفاضةَ محموم ، وأقسمتُ أن أفصِمَ العلاقة بينى و بين هذه الإنسانة التى لم أَجْنِ من ورائها إلا فنون العذاب ...

واستبان لى فى هذا الوقت عُظْمُ الْوِزْرِ الذى اقترفتُه فى حق مريضى الشيخ الذى أعوده .. كيف طوّعتْ لى نفسى أن أستنيم لهذه الدَّنِيَّةِ ؟

وما وصلتُ إلى « القاهرة » حتى كلفتُ المُمَرِّضَ أن يتصل بمنزل الزوج المريض ، ويُنْهِيَ إليه أنى موعوك ، وأنى أنَبْتُ أحد زملائى الأطباء فى مواصلة العلاج والإشراف .

وكنت أقطع وقتى فى استقبال زُوَّارى من المرضى ، وأنا أستسلم للعمل محاولا أن أستغرق فيه ، متناسياً جهدى ذلك الحبَّ الأثيم ، ولكن كلما صلصل « التلفون » هُرِعْت إلى المِسْمَعَةِ بنفسى ، لا أدع الممرِّض يسبقنى ، وفى نفسى تعتلج هِزَّةُ الارتقاب لصوت معيَّن ... بيد أن هذا الصوت نَبَا عنّى ، وعَزَّ علىّ !

وتوالت الأيام ، وأنا على تلك الحال ، أشعر وئيداً بأنى قد هدأتُ شيئاً ، وأنى فى الطريق إلى الخلاص من أعقاب تلك العاطفة الجَمُوح

ولقيتُ يوماً فى طريق الطبيبَ الذى أنبته عنى فى علاج الزوج الأشلّ ، فأخبرنى بسير العلاج ، وحالة المريض ، ثم ما لبث أن أشاد بتلك الزوجة السَّمْحةِ العطوف ، وبما وُهِبَتْ من فتنة ووسامة .

وافترقنا وأنا أُحسُّ ضِيقةً يتنزَّى بها صدرى ، وقضيتُ يومى مهتما مكتئباً ، لا تجدى الوسائل فى الترفيه عن نفسى .

وَبُكْرَةً طلبتُ صديقى الطبيب فى « التلفون » فشكرتُ له عنايته بالمريض ، وأخبرته بأنى قد تخلصتُ من شواغلى ، وأنى مستأنِفٌ إشرافى على مريضى ، وما أسرع أن جذبتُ حقيبتى ، وقصدتُ تلك الدار المنشودة !

لماذا أقدمتُ على ذلك ؟ . . لستُ أدرى !

وما إن بلغتُ الدار ، حتى شعرتُ بأن أوصالى يعروها انتفاض ، لا أعرف أَمِنْ أَلَمٍ هو أم من ابتهاج ؟

وَيمَّمْتُ حجرة المريض ، فألفيت الزوجةَ فى مكانها المختار من السرير تدلّل زوجها ، وتحوطه بعطف وإيناس . وما إن رآنى المريض حتى تهلل وجهه ، ترحيباً بى . وأما الزوجة فقد حيَّتنى تحية مألوفة فى أدب . وسرعان ما أتممتُ الفحص ، وأوصيتُ بالعلاج ، وخرجتُ أنا والزوجة إلى الحجرة المجاورة .

يا لله من هذه الحجرة البغيضة الحبيبة !

يُخيَّلُ إلىّ أنى أقرأُ على حوائطها تاريخَ ذلك الغرام العجيب ، مسطَّراً بأحرف بارزة !

كأنما لهذه الأحرف أبواق تنطق ، فتُسْمِعُنى ذلك التاريخ ، مجلجِلة الصوت ، قوية الرنين !

ووجدتُنى أستأنِى فى سيرى ، وسمعتها تقول :

أهنئك على سلامتك من وعكتك .

فقلت لها ونظراتى تنحرف عنها :

أتهزئين بى ؟

— وفيم الهزؤ ؟

— تعلمين أنى لم أكن بموعوك ...

فربتتْ كتفى ، وقالت مبتسمة :

بل كنتَ موعوكا .. هذا ما نتفق عليه . وإنما الخلاف بيننا على وصف الوعكة ، وتسمية المرض !

— أكنتِ تحسبين أن وعكتى تُزْمِن ، أم كنتِ تقدِّرين لها قريبَ زوال ؟

— الذى أستيقنتُهُ أنك لا بدَّ عائد !

— أما كان فى حسابك أن تنتهى بى الوَعْكةُ إلى انقطاع ؟

— ما كنتَ لتنقطع ، ولك نائبٌ عنك يطرق الدار ..

— أىُّ أثر لذلك ؟

— ثَمَّةَ شىء يسمونه الغيرة يا صاحبى ... الغيرة الكاوية . . وقانا الله لَفْحَها !

وأخذتْ بيدى تلاطفنى ، فقلت :

تخطئين الحدْس والتقدير ... لقد أصبحتُ اليومَ سيدَ قلبى ، وما جئتُ إلا لأثبتَ لك هذه الحقيقة ... لن يعنوَ قلبى لذل الهوى !

وخَطَتْ بى إلى ركننا المعهود ، وهى تقول :

أنتَ على حق !

— وسأضع لهذه العلاقة حَدًّا .

— لا تعجَلْ ، فالأيام رَهْنُ مشيئتك ، أما الآن ...

— الآن ؟

— سأحتفل بِمَقْدَمك !

— ماذا تقصِدين ؟

— أتأبَى أن أحتفى بحضورك بعد غيبة ؟ إن هذا لا تأثير له فيما تعتزم من أمر.

ورأيتها تُخرج من صِوَانٍ فى الحجرة صينيةً عليها قارورة أنيقة وكأسان ...

فقلت متعجباً :

شمبانيا ؟

— شراب لذيذ ، فيه خفة وصفاء !

وطرقتْ سمعى سَعلة الزوج ، فأمسكتُ بيدها أردُّها عن صَبِّ الشراب ، وأنا أقول :

لا ... لا ... لن يكون ذلك !

فنحَّتْ يدى فى لطف ، وأترَعَت الكأسين ، وقدمت لى كأسى ، فكدت أقذِف بها ، ولكننى وجدتُ صاحبتى تشتَفُّ كأسها دفعة واحدة ، وقد التمعت عيناها ، وتوردت وجنتاها ، فإذا أنا أتوسَّمها مُتَمَلِّياً مفاتنها الحِسان .

وأحسستُ كأنى أنهَلُ بعينى كأساً أخرى أغلى وأمتعَ من تلك الكأس المترَعة فى يدى ... ثم همهمت :

أية إنسانة أنت ؟

وكانت عيناها معقودتين بعينى ، فأجابت فى صوت الحالم :

حقًّا لا علم لى ... لك أن تقول ما فى نفسك ، وإنى لَشَيِّقَةٌ إلى أن أسمع !

وتدانت منى ، حتى أحسستُ بأنفاسها تتلاقى بأنفاسى ، وقلت فى همس :

أشعر فى بعض الأوقات أنكِ لستِ آدميةً من طينة البشر ... لكأنكِ حينا قَبْسةٌ من نار الجن ، وتارة نَهْلَةٌ من طُهْر الملائك !

ورأيتُنى أَعُبُّ الكأس عَبًّا بلا وَعْى ، وسمعتها تهينم :

هَبْنى مَلَكا أو هَبْنى شيطاناً ، ألا تُقبِّلنى ؟

وما هى إلا أن استوعبتُها بين ذراعىّ ، وغَيَّبَتْنا قبلة عارمة .

ونَدَّت منا حركة أطاحتْ بالمنضدة وما عليها ، فانصدع السكون الشامل بصوت مفزِّع ، وانتهى إلى أسماعنا قول الزوج المريض :

من ؟ من ؟

فأنصتنا وقد بلغ منا الرَّوْع غايته ، واستأنف المريض يقول مُتَثلِّمَ النبرات ، متلاحقَ الأنفاس :

من ؟ من فى الحجرة ؟

وخَرِسَتْ الحجرةُ لا تُجِيب !

كنا لائذَين بصمت لاذع جيَّاش .

وتابع المريض صيحاته العِجاف ، وأحسسنا به يتحرك ، كأنما يحاول أن ينهض ، وإذا بالزوجة تَنْفَلِتُ من بين ذراعىّ ، وتدفع بصينيَّة الشراب ، بعيداً عن مواقع النظر ...

واستبان سمعى حركةَ جسم فى الحجرة الأخرى يتقلقل ، وقدمٍ تَدِبّ متخاذلة ، وعصـا تَدقُّ الأرض واهية ، وأنفاسٍ مكروبة تغالب الإجهاد .

ووجدتُ الزوجة تمسك بيدى ، وتدفع بى تحتَ المُتَّكإ ، قائلة :

هنا ... هنا ...

فانتابتنى أخلاط من الخزى والرعب والارتباك ، تنتهب نفسى ، وتتقسَّمُ تفكيرى .

وازداد خَفْق القدم ، ودقّ العصا ، مِنْ وضوح ... ووجدتُنى تحت المُتّكإ أتكمش وأتجمّع ، لا أملك من إحساسى إلا أُذُناً تصغى .

فأما الزوجة ، فما أسرع أن تمددتْ على المتكإ فى سكون .

ودَلَفَ الزوج إلى الحجرة ، وهو يقول :

ماذا ؟ أأنتِ هنا ؟ لقد ناديتُ فلم يلبِّ ندائى أحد .

— معذرة ، مَلَكَتْنِى إغفاءة .

ونهضتْ إليه ، تُعينه فى خطوه ، واستأنف الزوج يقول :

لقد فزّعنى صوت انبعث من الحجرة .

— ربما كانت قدمى دفعتْ بالمنضدة ، وأنا فى سِنَةٍ نومى .

وسكتت لحظة ، ثم واصلت قولها حانيةً عليه ، تقول :

لماذا حملتَ على نفسك وتركت الفراش ؟ شدَّ مَا تشغَل بالك بأتفه الشئون ! ...

وما زالت به حتى أدنَتْه من المتكإ ، حيث كنتُ أجلس ، فأحسستُ المريض يتداعَى بجسمه الأشل ، وأقبلتْ عليه زوجه تلاطفه وتضاحكه ...

وسمعتُه يقول :

أخزى الله الشيطان الوَسواس الخنّاس !

— ماذا ؟

— لا شىء ... لا شىء .

— صرِّحْ لى بما فى نفسك .

— إن أعصابى متهافتة ، فلا عليك .

وتناول يدها ، يقبلها وهو يردد :

لولا وجودك معى لما حلا لى طعم الحياة ... ولولا أنتِ لما صبرتُ على ما أنا فيه ... ولكن أكبر ما يؤلمنى ما تقاسينه من عناء معى ! ... ما ذنبك فى هذا كله ؟

— أى عناء ؟ ألم أُحَرِّمْ عليك أن تُخْطِرَ ببالك شيئاً من هذه الهواجس ؟

— كلما وقع بصرى عليك ، وتجلت لى وسامتُك وشبابك ، أرانى مهموماً من أجلك ... إنك لتبذُلينَ فى سبيلى أعزَّ ما يبذله إنسان !

— أقسم لكَ إنى راضيةٌ بعَيشى معك ... لا ضِيقَ ولا ضَجَر ... وإنى لا أمنيةَ لى إلا أن أراك مطمئن النفس ، خالىَ البال .

وأطبق الصمت على الحجرة ، ثقيلَ الوطأة ، فأحسستُ فى مَحْبِسى أن شيئاً يجثُمُ على صدرى ، فيُخمد أنفاسى .

وسمعتُ المريض يقول ، مهزول الصوت ، راعش النبرات :

والطبيب ؟

فأجابته الزوجة ، فى لهجة تذوب رقة :

الطبيب ؟ ألك به حاجة الآن ؟

— أقصد ... أقصد ... لا شيء ! لستُ بحاجة إليه .

وشعرتُ بأن المريض يَلُمُّ شَعَثَه ، ويتأهب للنهوض ، فقالت الزوجة :

ألا تستوفى قِسْطَك من الراحـة ؟.. ابقَ جالساً ... لن أدَعَك تمضى الآن .

— لماذا ؟

— أنتَ الساعةَ ضيفى ، وقد سَعِدَتْ بمَقْدَمِك حجرتى ... فقد امتدت عنها غيبتُك ، وطال شوقُها إلى زورتك .

فتنهد قائلا :

حقًّا ، غبتُ عنها طويلا ... منذ أمد بعيد لم أجتلِ هذه المناظر ... إنها لتبعث فى نفسى ذِكْرَياتِ أُوبقات هانئة ، قضيناها معاً فى هذا الركن الأنيس ، ركننا المختار .

— من أجل هذا رغبتُ إليك فى أن تطيل جلستك .

ثم نهضتْ ، وهى تقول :

لك عندى مفاجأة .

— أية مفاجأة ؟

ولمحتُ قدميها الدقيقتين تتحركان نحو الصِّوَان، وماهى إلا أن أخرجتْ أشياء ، قصدتْ بها إلى المنضدة ، فرتبتها عليها . . . وصاح الزوج :

ماذا ؟ شمبانيا ؟

— احتفالا بزَورتك نحتسى كأسين .

— وهل كنتِ تتوقّعين قدومى ؟

— إنى أنتظر هذه الزورة وأُعِدُّ لها العُدَّة منذ وقت مديد ، فلنشرب على صحتك ... ولكن لن أصُبَّ لك إلاَّ مِلْء ربع الكأس ... لايُجيز لك الطبيب إلا هذا القدر .

وسمعتُه يهمهم :

الطبيب ؟ ... متى ترك الدار ؟

— بعد أن ذهب إلى المَطْهَى كعادته ، وتفقّدَ طعامك . إنه دقيق فى إشرافه وتعهُّده .

— إنى أتبع نصائحه ، لا أحِيد عنها .

وجعلتْ تصبُّ الشرابَ فى الكأسين ، ثم ما لبث الزوجان أن أخذا يترشَّفان ، وهما فى مصافاة ومؤانسة ، على حين أنى كنتُ فى محبِسى أكاد لا أستطيع إمساك الرَّمَق ...

أَعْفِنى من أن أصور لك : على أىّ نحو انتهى بى هذا المشهد .

كيف عاد المريض إلى مَرْقده ؟

كيف انطلقتُ من مَحْبِسى أُواجه الزوجة ؟

كيف زايلتُ الدار ؟

ذلك حلم مُهَوَّش أليم ، تشابكت أحداثه ، ومشى بعضُها فى بعض ،

فلم أملك لها تفصيلا .

مُجْمَل أمرى أنى تركتُ الدار محموماً ، أحسُّ كأن شَرْيَاناً فى رأسى على وَشْك الانفجار .

وما بلغتُ بيتى ، حتى استعنت بمخدِّر قوىّ يُسْلِمُنى إلى تبلد وسُبَات .

وفى صبيحة غدى ، عقدتُ نيتى على ألا أعود إلى هذه الإنسانة العنيفة ، مهما تكن البواعث .

انتهى كل شىء ... انتهى كل شىء !

كنتُ أردِّد هذه الكلمات فى عزم وحزم ، وصلصل فى هذه اللحظة جرس « التلفون » ، وإذا صوتها ، صوتُ هذه الإنسانة يقول فى لهجة فَزِعة يقطعها النشيج :

انتهى كل شىء ... مات زوجى !

مات زوجها ... كان لهذا النبأ وقعٌ فى نفسى شديد ... حتى إنى لم أستطع مواصلة الحديث ، وهُرِعْتُ من فورى إلى دارها .

بهذا يبدأ فصل جديد فى قصتى العجيبة ...

دارت بى الأفكار كل مَدار ، ورحتُ أسائل نفسى طويلا : كيف تكون صلتى اليوم بهذه الإنسانة ؟ أقطيعة ونسيان ؟ أم مواصَلة وتَلاق ! كيف يكون شعورى نحوها ؟ أشوق وشغف ؟ أم فترة وسكون ؟

بدأ لقائى إياها ، غِبَّ وفاة الزوج ، لقاء ليس فيه إلا مألوف المجالس

والأحاديث ، ولشدَّ ما راعنى أنها على زوجها والهة جِدُّ محزونة ، حتى لقد أثار ذلك بين جوانحى إحساس ضِيقٍ بذكرى ذلك الزوج ... ولكن أأضِيق بشخص لم يصبح له وجود ؟ بل لقد أخلَى لى السبيل ، لكى أنفذ من أمرى ما أريد ... أليس هو اليوم جديراً بالرِّثاء والإشفاق ؟ حَقًّا إنه لكذلك ، ولكن الزوجة بحزنها من أجله ، وحِدادها عليه ، تجعلنى حائراً بين النقائض من المشاعر والأحاسيس !

على أنى لم أكن أدرى أية عاطفة تلك التى توحى إلى الزوجة أن تحزَن على زوجها الراحل ؟ أهى عاطفة ندم ويقظة ضمير ؟ أم هو الوفاء لمن كان رجلَها وشريكها فى الحياة ؟

لم تطل بى الأيام ، حتى انتهت بى الحيرة إلى طمأنينة ورضا بما صنعتْ الأقدار .

وانصرفتُ أتحبَّبُ إلى تلك الإنسانة ، أحاول أن أخترقَ حجاب التحفظ الذى فرضتْه ملابَسات الأحزان ، وأعالج أن أثير كوامن حبِّها إياى ، فلم أجد منها أىّ استجابة .

كانتْ فى لَبُوسها الأسود ، لا زينةَ ولا زُخرف ، غارقةً فى سهوم ، ضنينة بالحديث ، لا تقابل محاولاتى إلا بملاطفة عابرة .

وتواردت الأيام ، تخفّف من وطأة الحزن ، وشعرتُ بتلك الإنسانة تُراجع ما انقطع من شئون حياتها المألوفة .

وشرعتْ تستجيب شيئاً لعاطفتى ، فتُطارحنى الملاطفات فى ابتسام ساحر خلاب .

وكانت تقضى معى بعض الوقت فى مُسْتَشْرَف الدار ، نحتسى الشاى ، أو نترشف القهوة ، فى رقة و إيناس . وقد اختارت هذا المستشرَف مكاناً للقاء ، وهجرتْ ذلك الركن المعهود فى الحجرة المجاورة لحجرة الزوج الراحل إبَّانَ مرضه الأخير .

ليس من شك فى أن حبى إياها كان حينئذ يتضاعف و يتضاعف ، وقد انسدل الستار على كل ما كنتُ آخُذُه عليها ، وأنكره منها .

لم أعد أفكر فى شىء من أحداث الغابر .

كانت نفسى مفعَمة بآمال ورغاب عِذاب ، لا تَدَعُ لغيرها أن تجد مَفِيضاً أمّا هى فكانت فى ظَرْفها ومؤانستها آيةً بَيِّنة ، وكنتُ أحسُّ أنها تكنّ لى أعمق الحب وأصدقه ، ومن ثم تتضوّأ آمالى ، وتطمئن إلى مستقبلها المنشود !

بَيْدَ أن هذا الاطمئنان والصفاء كان يعكره تحفظ بالغ ، تَحَفُّظُ عذراء ليس لها بخاطبها عهد .

على أنى لم أملك إلا أن أحترم إرادتها ، ملتمساً لها ألوان التَّعِلاَّت والمعاذير . . .

وكنا أصيلاً فى مُسْتَشْرَفِ الدار ، تتهادى إلينا نفحات من نسيم

الغروب ، وكانت صاحبتى تتخذ مجلسها قُبالتى ، وقد أذكى فتنتها ما أحاط بنا من صفاء وسكون . . . وفى الفينة بعد الفينة يحوم حولها النسيم عابثاً بشعرها الموّاج ، فتترسّل منه غِلَالَةٌ تنبسط على جانب مُحيّاها ، فتبدو كأنها لِثام هفهاف يتراءى خلف ظلمتِه الشفافةِ حُلْم رائع لَمّاح !

وتدانيتُ من مقعدها ، ولاطفتُ راحتها ، وأنا أقول :

ألا ترَيْنَ الوقت قد حان لأن نؤلف بين قلبينا برباط أوثق وأبقَى على الأيام ؟

فنظرتْ إلىّ فى دهشة ، تقول :

أتحسّ أننا فى حاجة إلى مثل هذا الرباط ، لنقوى به ما بيننا من عاطفة ؟

— أحسّ أن حياتنا تفتقر إلى ذلك النهج المألوف من أوضاع المجتمع ونظام الحياة . . . كنا فى عهدنا الأول لا حيلةَ لنا إلا فى أن نحيا على ذلك النحو ، فأما اليوم ففيم هذا التباعدُ والانفصال ؟

— ثق أننى لم أشعر ساعةً ، منذ تعارَفْنا وربط الحب بين قلبينا ، أننا منفصلان . . .

فجعلتُ أتوسّم يدها رَخْصة بَضّة ، وأصابعها قانيةَ الأطراف كأنها حبّات « الكرز » ... وقلت :

الحقُّ ما تقولين ، ولكنك تَعْنِينَ جانِبَ الخيال والعاطفة والرُّوح ، فأما الحقيقة الواقعة . . .

فقاطعتْنى تقول :

أنت تفرق بين ما تسميه عاطفة وخيالا وروحا ، وما تسميه حقيقة واقعة . ولكن ألا تؤمن معى بأن العاطفة والخيال والروح جوهر الحقيقة ولُباب الواقع ؟.. أنت تتحدث فى شأن الحبّ ، أتشك فى أن حبنا حقيقة من أعظم حقائق الحياة ؟

وكانت ترسل قولها ، وهى تبعَث فى الأفق نظرات حالمة ، فَرَبَتُّ يدها فى رفق ، وأنا أقول :

انظرى إلىّ ، حَدِّقى فى وجهى ... استيقظى يا صديقتى ... تحدَّثى إلىّ حديث اثنين لهما فى الوجود كِيان .

فالتفتت إلىّ باسمة فى إشفاق ، وتلاقت نظراتنا برهة فى نشوة ، وأحسستُ أنى سابح فى فيض من نور مُحَيَّاها الألأق ... ثم ألفيتُنِى أُدنى وجهى من وجهها ، وكادت شفاهُنا تتلامس ، ولكنى وجدتُها بغتةً تتراجع قائلة :

لا ... لا ...

فنهضتُ على الأثر ، وقد أصْمَتْنى كلمتها ... وقلتُ غاضب اللهجة :

لم يَبق لى فى قلبكِ حبّ !

فردت هادئة الصوت :

أهذا قولك ؟

— منذ تُوُفِّيَ زوجك ، وأنا أشعر بأن عاطفتك نحوى لا تعدو جانب المجاملة .

— إنكَ لتثير بقولك عجبى .

— بل إن موقفك منى لَهُوَ العجَبُ العُجاب !

— ماذا تنكر منى ؟

— إنكِ لَتأبَيْنَ علىّ كل شىء ، حتى القبلة !

— القبلة يا صديقى أثمن وأغلى من أن نبتذِلَها ... إنها كالزهرة الناضرة على فَنَنِها الرطيب ، تَبُثُّ الأريج ، فتفتِنُ النظر ، وتُنعش الرُّوح ... أفلا نَدَعُها على فننها تتألَّق وتتنضّر ، فتلهبُ فى نفوسنا الشوق والشغَف ؟ أفلا ترى أننا بذلك نستمتع بنشوة جيَّاشة ؟

فابتسمتُ ابتسامة استخفاف ، وقلت :

على رِسْلك .. أفندَع الزهرة على غصنها دانيةً دون مَسَاس ؟ أفتظل كذلك إلى الأبد ؟

— بل إن لكل شىء إبَّانَه الموعود !

— ومتى يَحِين فى زعمك قطف هذه الزهرة العصيَّةِ المنال ؟

— إن الحب الأصيل يجب أن يعرف متى يَحِين القِطاف ... أمَّا أن تعبَث الأيدى بالزهر فى كل نَزْوة ، فذلك امتهان لمتعة الاقتطاف أىّ امتهان !

— إنى أعرف شيئاً واحداً .. ما دام الحبُّ يتلهب وَجْداً إلى القبلة

فقد وجب اقتطافها على أية حال .. إن الظمآنَ لا تدبير له إلا أن يرتوىَ بالنَّهلاَت العِذاب !

— أفى حِسْبانك أن الظمآن ينقَع غُلَّتَه على الوجه الأمثل إذا تيسَّر له الماء دون عَناء ؟

— هذا هو الوضع الطبيعى للظمأ والرىّ !

— ماذا ترى فى عطشانَ بلغ منه العطشُ كل مبلغ ، ووجد الماء حِياله صعب المنال ، فما زال يجاهد ويكابد ، حتى أصاب منه ما استطاع ، بعد لَأْىٍ وإعياء ؟

— لا ريب أنه يشرب ماءه مَشُوبا بالضيق والعَنَت .

فقامتْ إلى حاجز المُسْتَشْرَف تهيم بأنظارها فى الفضاء ، وهى تهمهم :

بل إن ذلك هو الذى يُفيضُ على الرِّىِّ كل متعة وانتشاء !

فتركتُ مقعَدى ، وخطوتُ إليها أُدانيها ، وأنا أقول :

دَعِينا بربك من هـذه الفلسفة الشعرية الشَّرود ... لو مضينا نتطارح مثل هذه الخواطر لما انتهينا إلى قصد ... أشفق على نفسك وعلىّ ... لنختصر الطريق ... كلمة أريد أن أقولها قبل أن أنصرف ، ولا أطلب منك إلا رداً موجَزاً صريحاً .

فالتفتت إلىّ فى ابتسامة سانحة ، وهمهمت :

قل ما بدا لك .

— إنى أَعْرِضُ عليكِ نفسى زوجاً ... فهل تقبَلين ؟

فظلت صامتة تحدِّق فى وجهى ، كأنما تريد أن تستجلى ما وراء عينىّ من دخيلة نفسى ، واستأنفتُ أقول :

ما جوابك ؟

— إن أَردتَ المصارحة ، فإنى لم أُدِر هذا الأمر بفكرى من قبل !

— ومتى تفكرين فيه ؟

— لا أدرى !

— معنى هذا أنك ترفضين . . .

— أَسمعتَ منى كلمة الرفض ؟

— إذن أنتِ تَقْبَلين ....

— أَسمعتَ منى كلمة القَبول ؟

ووقفتُ حائراً مَغيظاً ، أَرنو إلى حَدَقتها ، كأنى أَسبرُ غور بئر تائهة الأعماق . ثم وجدتُنِي أقول :

لماذا تعذبيننى ؟

فأقبلتْ علىّ مشغوفة تمسك بيدى وتلاطفها فى ترفُّق وإخلاص ، وهى تقول :

قَسَماً بما بيننا من حب إنى لم أُرِدْ لك عَذابا .

— أىّ حب ذلك الذى تُقسِمين به ؟ إنك لتهدمينه هدما !

— بل إنى لأعمل جاهدة على الاحتفاظ به صافياً نقيّا ، لا تتطرق إليه شوائب الانحلال .

وتقضت أيام دون أن يطرأ على صلتنا جديد .

وظَلِلْت أُرُوضُ نفسى على الصبر ، قانعاً من صديقتى بودِّها المحض ، يحدونى أمل فى مستقبل سعيد .

وترامَى إلىّ نبأ فَزِعْتُ له ، ولم تكد تصدِّقُه أذنى ، فبَكَرْتُ إلى دارها ، وصادفتها فى المستشرف ، تلهو بالتطريز ... فما لَمَحَتْنى حتى ضاء وجهُها ، وتجلى فيه إشراق ، وابتدرتْنِي بتحيةٍ شيِّقة ، وهى تقول :

الساعةَ كنتُ أفكر فيك ، وأحسُّ الشوق إلى رؤيتك ... فهل كان هذا الإحساس هو الذى اجتذبك إلىّ ؟

فقلتُ ، وأنا أحدِّق فيها بِمَجَامِعِ عينىّ :

أحقًّا كنتِ تفكرين فىّ ؟

— أفى قولى تشكُّ ؟ أليس فى مستطاعِكَ أن تستمعَ إلى نجوَى قلبى ، وتتعرف سريرتى ، دون استعانة بما يلفظه لسانى ؟... أأكون قد أخفقتُ فى إشعارِكَ بحبى إياك ؟

أصغيتُ إليها واجف القلب ، جَيَّاش الأعصاب ، فوجدتُنى أتخاذل وأستكين . ولكن عاودنى الاهتمام بما جئتُ من أجله ، فاستنقذتُ شجاعتى ، وتمالكتُ قائلا :

كيف تزعُمِين أنك تحبيننى وأنتِ ترمعين اتخاذ غيرى شريكا لحياتك !

فقالت فى ثقة ويقين :

أنتَ شريكُ رُوحى الأول والأخير .

— أزاعمةٌ أنتِ أن نبأ زواجك إشاعة لا صحة لها ؟

فأجابتْ فى تمكن ورباطة جَأْش :

للإشاعة من الصحة نصيب !

فقلتُ لها مشدوها :

إذن أنتِ مقبلةٌ على الزواج بغيرى...

— وماذا يَرِيبُكَ من هذا الصنيع ؟

فصحتُ بها :

يجب أن يركّب الله فى نفسى طبعاً غير طبعى ، وخُلُقا غير خلقى ، حتى أستطيع أن أجيبَكِ عن هذا السؤال !

فأخذتْ تعبَث بمنديلها لحظة ، وهى ترمى بنظرها إليه . ثم قالت :

يؤسفنى أن هناك تفاوُتاً كبيراً بيننا فى النظر إلى الأمور ، واعتبار الحقائق .

— أؤكد لك أنى فى لَبْسٍ وحيرة من شأنك ، فَبِرَبِّكِ أوضحى وأبينى .

فَسَمَتْ إلىّ بعينيها ، فبهرنى من حدقتيهما صفاء ألأَق ينكسف أمام

سواده أسطع الأضواء . وقالت فى صوت لَيِّن المكاسر :

إنى فى حاجة إلى رجل يقاسمنى عِبْء هذه الحياة الراتبة . أقصد رجلا من أولئك الأزواج الذين تقوم عليهم دعائم البيوت ، رجلاً عشيراً أركن إليه ، وأطمئن به ... وقد اخترتُ شخصاً توافرتْ له تلك الصفات التى أرجوها ... ألستَ موافقى على رأيى !

فانبثقتْ من بين شفَتَىَّ ضحكة ساخرة شَوْهاء ، وقلت :

أرجو ألا تَحْرِمينى أن أكون شاهداً فى عَقْد زواجك ...

— إنك دائماً تنتزع من حديثى مَثَاراً لسخرية واستهزاء .

— أَيُّنَا الساخر المستهزئ ؟ إنك تتحدثين عن خاطب اليوم وزوج الغد ، فتُسْبِغين عليه أكرم خِصال الرجال !

— ما قلتُهُ أنا حق .

— وأنا ؟ ماذا أكون فى دنياك العجيبة ؟

— أنت ؟ أنت شىء آخر .

— حقًّا ... شىء آخر ... على الهامش ... لست أهلاً أن أملأ حياتك !

— أنتَ مِلْء حياتى كلها ، لا تدع لغيرك فيها ناحية .

فصرختُ :

هذا هُراء كلُّ هراء ...

— خفف من حِدَّتِكَ .

— هذا فوق ما أحتمل

— آفتُكَ هذه الغيرة الحمقاء .

— وأنتِ يا سيدتى .. ألا تغارين ؟

— أثَمَّةَ شىء يثير غيرتى ؟

— إذا قلتُ لكِ إنى متزوج غيرَكِ ، فماذا تَرَيْنَ ؟

فأجابتْ ، وقد برقت عَيْنُها :

أحقًّا تقول ؟

— أقسمتُ لأفعلنَّ .

— ليتك تَبَرُّ بقَسَمك .

فنظرتُ إليها كالمخبول ، أقول :

لا بأس . تتزوجين غيرى وأتزوج غيرك ، ثم نطوى حبنا ، وننفصل إلى الأبد !

— بل إننا نستقبل عهداً من الحب يبلغ فيه الأوج ، ويستكمل النضج والإيناع .

— أما التفاهم معك فلم يَعُدْ إليه سبيل... أحدنا مجنون وحقِّ السماء !

وركضتُ مغادراً الدار ، يغلى رأسى كالمِرْجَل .

... ...

ما كان أعظمَ انتصارى فيما بعد .

لقد نجحتْ خُطتى فى صرف صاحبتى عن زواجها الذى أزمعَتْه . ولم أقف عند هذا الحدّ ، وإنما أقنعتُها بأن تكون لى زوجا .

مجهود جبّار بذلتُه ، ووسائل شتى لجأتُ إليها غيرَ ملول ... مرة أقاطع، وحينا أهدِّد ، ويوماً ألاين ، وساعة أسترحِم ، حتى أوفيتُ على الغاية ، وملكت القيادَ .

الآنَ وقد مضت أشهر على زواجى إياها ، لا أدرى أ كان ذلك فوزاً بلغتُه ، وكسبا أصبتُه ؟

أخشى أن أقول إن أحلامى كلها قد ذابت .

لقد جنيتُ على نفسى وعلى هذه الإنسانة ، بما سعيتُ إليه جاهداً من زواجى إياها .

إنى اليوم لأتبيَّن سلامة رأيها حين كانت تؤثر ألا يكون بيننا هذا الزواج .

لقد هدمتُ أنا سعادتنَا هدما .

لقد أحلتُ هذه المرأةَ بذلك الزواج من إنسانة تضطرم حيويتها ، وتتوهج عاطفتها ، إلى تمثال من الرُّخام ، لا حيوية فيه ولا عاطفة . تمثال جميل ، ولكنه جمال صامت تشيع فيه البرودة والجمود .

كأنى أعاشر ميتاً ، لا رُوحَ فيه !

طالما هفا بى الشوق إلى أن أقبِّلها ، فلا أكاد ألامِس شفتها ، حتى أحسّ كأنى ألامس قطعة من جليد ، وسرعان ما يشملنى همود وخمود .

وحقيق بى أن أعترف بأن هذه الزوجةَ على ما طرأ عليها من جمود عاطفة وركود إحساس ، كانت ربةَ بيت يزدان بها البيت ، وكانت زينةَ المحافل فى الكِياسة والظَّرف ، حتى إنى لأدهَش إذْ أراها فى هذه المحافل وقد انسلختْ من جمودها الرخامى ، وتوهجت أنوثة ورقة . . . وكان ذلك يَهيج بين جوانحى ألماً دفيناً أجاهد فى كَبْته ، فيسلمنى التفكير إلى ظنون وأوهام أعْجَب كيف تَخْطِر لى ببال .

وكثيراً ما بَرِمْتُ بهذه المحافل ، إذ كنتُ أحسّ بأنى فيها واغل غريب ، وأن شمائلى قد اتسمت بطابع الخشونة والاستيحاش ، على حين أنى كنتُ فيما مضى معروفاً بدماثة الطبع ، ورقة الحاشية ، والبراعة فى مطارحة الأحاديث ، ومؤانسة الجُلَّاس .

وأحْصىَ علىَّ بعض إخوانى بوادرَ من سوء المعاملة ، لم يعرفوا لها من تعليل ، فاستبانتْ على وجوههم مخايل الاستياء والنفور ، وأخذت تبدو على أفواههم بَسَمات إشفاق ورثاء !

وحقا كنتُ فى هذه المحافل لا أملك لأعصابى زماماً ، أتلفت لأقل نَأمة مباغِتة ، فإذا انقلبتْ مائدة أو هَوى كرسىّ ، هَزَّ التفزُّع أقطار نفسى جميعاً .

أما زجاجات الشمبانيا فكان منظرها يثيرنى ، ويملأنى اشمئزازاً ، فصدفتُ عنها ، ولم أعُدْ أمدُّ إلى أقداحها يداً .

وكانت هذه التصرفات تزعج زوجتى ، فَتُقْبِلُ علىَّ بعد السهرة معاتبة مسائلة ، ولم أكن أجد عوناً من لسانى إلا كلمات الاستعطاف والاستغفار ، ولا ألبثُ أن أبثَّها آيات حبى وشغفى ، ثم إذا بى أطوِّقها بذراعى كأنى أحاول أن أستبقيها فى حَوزتى ، خاشياً أن تَصْفِرَ منها يدى !

وما زال ضِيقى بهذه المحافل والسهرات يشتدُّ ، حتى انتهى بنا الأمر إلى أن عَزَفنا عنها كل العزوف ، فأصبحنا لا نزور ولا نُزَار .

ولاحظتُ أن زوجتى تُكثر من الاختلاف إلىّ ، فى عيادتى ، حيث أستقبل مرضاى ، وتجعل زوراتها فى مواعيد متباينة . وما أدرى أكانت تزورنى حقاً لأمر ذى بال ؟ أم كانت تصطنع الأسباب والتَّعِلاَّت متخذةً منها أستاراً وأَقْنِعَة ؟

ومما كان يثير عجبى أنها تطيل انتظارَها إياى فى حجرة الزوّار ، فأجدنى قد اعترانى قلق واضطراب ، وراودتْنِي ألوان من الشكوك ، حتى إنى لم أكن أستنكف أن أسأل الممرض فى الفينة بعد الفينة :

ماذا تصنع زوجتى ؟ وهل يتحدث معها أحد ؟

وشرعتُ أتجسس عليها ، وما كان فى طوقى ألا أفعل ، فقد دَفَعَتْنى إلى ذلك دوافع نفسية ليس عنها مَحِيص .

وكنتُ أحياناً ، بينا أنا أتفحص مريضاً ، أرانى قد تركت حجرتى ، وانطلقت إلى حجرات الزوّار ، أتبين زوجتى : كيف هى ؟ وإلى من تجلس ؟

وفى أغلب هذه الأحوال، كنت أجدها متكئة على الكرسىّ ، منهمكة فى نسج وتطريز .

وربما عاجلتنى نوْبة هياج ، واندفعتُ فى أرجاء العيادة أتصفح الناس وأتفحّص الأشياء ، وما أزال أدقق فى البحث والتفتيش، تحتَ المُتّكآتِ ووراء الأبواب ، مُدَّعِياً أنى فقدتُ شيئاً ، وأنى أنْشُدُه .

وكان هـذا التصرُّف يبعث دهشة الزوار والخدم ، فيسْرِى بينهم التساؤل والهمس .

وكثيراً ما يَمَّمْتُ المِرْآة ، أتطلع إلى مُحَيَّاى ، وأتبيَّن عينىَّ : هل فى نظراتى علائم جنون ؟ !

كنت أشعر بأنى مكتمل العقل ، صحيح الإرادة ...

ولـكن أيّة مجنون يعترف بأنه فقد من عقله مُسْكة ؟

ويوماً ثارت ثائرتى ، فتقدمتُ إلى خدم المنزل بأن يُخْلُوا الحجرات من المناضد ، ولـكنى لم أعتم أن رجعتُ إليهم فى غَدِى آمرهم بأن يعيدوا تلك المناضد حيث كانت . . .

ومما رابنى من أمرى أنى كنت لا أطْعَمُ الهدوء إلا إن كانت زوجتى

خارج الدار ، فثمّة أجد الراحة سابغة ، وأحسُّ بأنى أحيا حياة مألوفة يشيع فيها السكون والصفاء ، فإذا احتوى البيت زوجتى ، وتناهى إلىّ من جانبها حركة أو صوت ، جُنّ جنونى ، وهاجتْ أعصابى ، وكأن أفاعِىَ تتناهب فؤادى !

وقد تُقْبِلُ علىّ ، وأنا فى هذه الحال ، فآخذُ بيدها محدِّقاً فى وجهها ، أتفرس وأستشفّ ، محاولا أن تتجلى لى الحقيقة المستورة خلف ما يبدو من مظاهر . . .

وجاء يوم أصبحتْ فيه عيادتى قليلة الزوّار ، بعد أن كانت تضيق بهم من كل صوب وحَدَب ، فاتسع وقت فراغى ، فكنت أقطعه بتفكير عميق فى أمرى ، وتحليل دقيق لنفسيتى ، وعَرْض لما يكتنفنى من ملابَسات وأحوال . . . ثم ينتقل بى فكرى إلى زوجتى ، وما هى عليه من غرابة طبع ، وتعقيد نفس .

ووضح لى أن صحتى تتهاوَى . . . رأس يَصْخَب بآلامه وأوجاعه ، وجسم تنتابه لَفَحات الحمّى ، وأعصاب مستوفزة يَقْظَى ، ينتهى بها التوتر إلى خَوَر وتهافت .

واضطُررْتُ أخيراً أن أنقطع حيناً بعد حين عن عيادتى ، ملازماً بيتى ، ونَصَحَ لى رفاق الأطباء بأن أقضى وقتى فى راحة شاملة ، وأكّدوا لى أن ما بى يرجع إلى إجهاد وإعياء .

ولكن أنَّى لى أن أذوق الراحة ، وهذه زوجتى تقاسمنى حياة البيت ؟

إنى لأقرّ بأنها لا تألو جهداً فى العطف علىّ ، والبرّ بى ، والعناية بما أنا فى حاجة إليه من علاج وتمريض . . . ولكن هذا كله كان يزيد فى قلقى ، ويضاعف من اضطرابى !

لقد أمسى البيت أمام عينى جحيما لا تطاق .

لَكأنَّ كل ركن فيه مغارة نكراء ، تتدسّس فيها عناصر أذِيَّة وشر ، متربصةً بى ، راصدةً فرصةَ الانقضاض علىّ ، والانتقام منى !

بل إن البيت كله لَكأنه مُلْتقَى أحجار تزدحم فيها الثعابين ماكرة غادرة ، ولكأنى بها تطلق فَحِيحَها فأسمعه عَجِيجاً فى الأرجاء ، وتنفُثُ سمومها فأستنشقُها سارِيةً فى الهواء !

وأدتْ بى الحال إلى أن أستوطن الفراش ، لا أبرَحُه إلا قليلا ، وكان أكبر ما راعنى أن أكون لهذا الفراش عبداً ذليلا .

أمَا من وسيلة إلى تحطيم هذه القيود ؟ ألا سبيل إلى فِرار ونَجاء ؟

فإن لم يكن بدٌّ من بقائى رَهْنَ وِسادى ، فهل من ذريعة إلى أن أُبقى زوجتى مشدودة إلى جانبى بأغلال ثِقال ، لا تملك معها الانتقال ؟

ولكن ليس ثَمَّةَ قوة فى الأرض ولا فى السماء تستطيع التغلب على هذه الشيطانة الشَّغوب !

رَبَّاه ! . . .

كيف سولتْ لى نفسى أن ألقِّبها هذا اللقبَ الذميم ؟ وهى التى تغدق على من حنانها وعطفها ما لا عهدَ لى به من قبل . وحقًّا إنه لحنان وعطف لم آنَسْه من أحد غير هذه الزوجة الرؤوم !

لستُ أنسى يوماً استغرقنى فيه نوم ثقيل الوطأة ، وجسمى كأنه سَنْدَان تتعاقب عليه المطارِق ، وأكاد لشدَّةِ وَقْعِها أتبينُ مساقط الضربات من أوصالى .

وبينما أنا كذلك إذ أنبهنى صوت ... أكان هذا الصوتُ منسربا من وَليجة نفسى ؟ أهو صوت من أصوات تلك المطارق التى تدُقّ جسدى ؟ أم هو صوت منبعث من الحجرة الملاصقة لحجرتى ؟ !

وكانت زوجتى ، ساعةَ نومى ، على مقربة منى ، فلم يكد الصوت يصُكُّ سمعى ، حتى ألفيتنى أدير حولى نظرات متفزعة ملهوفة ، فلم أجد لزوجتى من أثر .

ووجدتُنى على الفور أجاهد لأنهض ، وانطلقتْ من فمى صيحة :

ما هذا ؟ من هناك ؟

ثم أرهفتُ السمع . . .

لماذا صحتُ هذه الصيحة ؟ إنه لخطأ جسيم ، وفلتة خرقاء !

كان أحْزَمَ أن أعاجل الحجرة مفاجئاً .

وتحاملتُ على نفسى قائما ، وأنا أتخذ من الجدران عوناً على أن أخطو ، إذ كانت ساقاى لا تقويان على حمل ذلك الجسد المهدود .

وأشرفتُ على الحجرة المجاورة ، وأنا أُحدّ من بصرى ، فلمحتُ زوجتى ممدَّدة على المتكإ ، وما إن شعرتْ بمقدَمى ، حتى أسرعتْ إلىّ تأخذ بيدى.

وكنتُ مُسْتَرَق الأنفاس ، راجفَ الأعصاب . . . وسمعتُها تقول :

لماذا أجهدتَ نفسك ؟

فقلتُ :

لقد ناديتُ ، فلم يلبِّ ندائى أحد .

وما كدتُ ألفظ هذه الجملة ، حتى شملتْنى ارتعاشة عارمة .

يا لَتعسى !... ما زلتُ مندفعاً فى حماقتى ، أتعثر فى الكلام .

لماذا أُخْبرها بأنى ناديتُها ؟

إنها سلسلة من الأخطاء ، أُضيف حَلْقة منها إلى حلقة .

وسمعتُ زوجتى تقول :

معذِرة . . . أَخَذَتنى إغفاءة !

ثم واصلتْ قولها فى حُنُوٍّ بالغ :

تعال هنا . . . تعال نجلس على المتكإ معاً .

وَحَدَجْتُ المتكأ بعين تضطرم ، وأنا أتباطأ فى خطاى إليه .

إنه المتكأ العظيم ، ذلك العَرْشُ الآثِمُ الخدّاع الذى تكمُنُ فيه الخناجر المسمومة ، فلا أكاد أجلس عليه حتى تنغرزَ نِصاله فى جسدى ...

ورأيتُنى على الرغم منى أتدانى منه ، وفى لحظة تهالكتُ عليه .

وطوّفتُ ببصرى ، أبحث عن المنضدة ، فصدمتْ عينى قائمة فى ركن منزو تحدجنى كأنها بُومَة مشئومة تلتمع فى نظراتها السخرية والفناء !

والزجاجات ؟ ... أين هى ؟

إنها هنالك بلا ريب ، فى مكانها المعهود عينـه !

وندّت من فمى ضحكة أفزعتنى ... أهى ضحكتى حقاً ؟ أم ضحكته هو ؟ .

هو ... إنى لأحسُّ أنفاسه الحبيسة تجيش تحت المتكإ ، فكأنى جالس على بُرْكانٍ تحتدم فيه الحُمَم !

وقالت لى زوجتى ، وهى تنظر إلىّ فى ذُعْر :

أنتَ شديد الاِضطراب ... ألا أُحضر لك جُرْعَةً من دواء ؟

فصحت :

بل شربة ماء !

فقد كنتُ أحسّ بحلقى قد جفّ حتى تشقق ، ولسانى قد جَمَد فلم أعد أستطيع له تحريكا بين شِدْقىّ !

وما أسرعَ أن عادت إلىّ زوجتى بكوب ماء ، فقرّبته إلىّ ، ولكنى جعلت أحدّق فيه برهة ، لا أُمُدُّ إليه يدى .

أكوبُ ماء هو ؟ أم قدح شمبانيا ؟!

ويلى ! ... إن زوجتى مصرّة على أن تعيد الرواية كاملة الفصول .

يا لله ! ... مِنَ النّزَق أن أغالطَ نفسى ، فلا أُلقى بالا لتلك الحركة التى

أحسُّ بها تحت المُتّكإ . . .

ودفعتُ بالكوب جانباً ، وصرخت ، وأنا أحاول النهوض :

سأكشِف السر ، مهما يكن الأمر !

فى تلك اللحظة ، غامت الدنيا أمامى ، وكأن ضَبَابةً كثيفة غَشِيَتْ عينىّ ، ففقدتُ وعيى على الأثر .

ولما ثاب إلىّ رشادى ، ألفيتُنى فى حجرة غير حجرتى ، بل فى دار غير دارى .

وكنتُ كأنى قد أُجريتْ لى منذ قليل عملية جراحية ، فشرعتُ أصحو من تأثير مخدِّر . بل لكأنى قد مِتّ حقاً ، أو توهمونى مِتّ ، فأنزلونى رمسى ، وهالوا علىّ التراب ؛ فلما تَبَيَّنوا أنى مازلت حيًّا أخرجونى من مَحْبِس الموت ، ووحشة القبر ، إلى حيث النور والهواء .

النور ... النور اللألاء الذى أُمْتِعُ به عينىّ بهيجاً .

والهواء ... الهواء النقىّ الذى أملأ منه رِئَتىّ منعِشاً .

وهمهمتُ :

أين أنا ؟

وإذا صوتُها الحَنُون العذب يجيبنى ، وقد أخذتْ بيدى تلاطفنى :

أنتَ فى المستشفى ... هى أيام قلائل تقضيها هنا للراحة والجَمام !

إذن أنا فى مستشفى . . .

ولكن أى مستشفى هو ؟

أللأمراض الجُسْمانية هو ، أم لأمراض العقول ؟

وتلك الأيام القلائل . . .

أتمضى سراعا ، أم تمتد شهوراً وسنين ؟

مجنون !...

ما ضرَّنى أن أكون مجنوناً ؟..

إنهـا تجربة جديدة أُمارسها فى هذه الحيـاة ...

يلوح لى أنها تجربة طريفة لطيفة !

متاعبى تتزايل ...

نور بهيج ... وهواء منعش .

وهى بجانبى ... هى ... دائما هى !

واحتويتُ يدها الرَّخْصَة بين يدىّ ، أتوسّمُ مليًّا تلك الأصابع القانية الأطراف ، كأنها حبات « الكرز » اليانع ، ثم أدنيتُها من فمى ، وأودعتُها قبـلة جيَّاشة زاخرة !

الحُكْمُ لله

كان جالسا القُرْفُصَاء فى حجرته الفردية من السجن ، معتمداً ذَقنه بيديه ، رانياً إلى الحائط المعتِم أمامه . ولم يكن له غير الحائط مجالاً للنظر ، فحجرتُه ليست كلها إلاّ حوائط متشابهة .

وذلك الظلام المخيِّم على كل شىء ، كان يراه شائعاً حوله ، ويحسُّه يغمر دَخِيلة نفسه . إنه الظلام الدائم العابس ، ذلك الزميل الوحيد الذى يلازمه ولا يريد له فراقاً .

لقد أمضَى فى هذه الحجرة أياماً لا يحصِى لهـا عدداً ، ولم يكن يستطيع أن يميز بين ليلها ونهارها ، فقد كانت الحجرة متغلغلة فى مَبْنَى السجن ، كأنها هاربة تريد أن تلوذ بمكان سحيق ، تستخفى فيه عن الأنظار !

ولا يذكر أنه رأى ما يسمونه ضوء الشمس ، وإن كان يذكر أن بصيصاً يَدْلِف إليه حيناً بعد حين ، فلا يعرف : أبقيةٌ هى من أشعة الشمس استطاعت أن تُفْلِت من بين الجدران والسدود ؟ أم فضلة هى من فَضَلات أضواء المصابيح الشحيحة فى ذلك البناء الكئيب ؟

وذلك الصمت الثقيل ... كان يتمثل فى مخيِّلته كأنه كتل ضخمة من الحجارة تتراكم على كاهل ذلك المأوَى الضيق الذى يحتويه ... صمت متواصل يقطعه رنين أجراس السجن فى فترات متباعدة ، فيترامَى هذا الرنين إلى أذنه مضطرباً متخاذِلاً مزَّق بُعْدُ الشُّقةِ أشلاءه ، فلا يبلغه إلاّ أصداء غامضة لا يدرك لها كُنْهاً ، حتى إنه ليتخيلها بعضَ وساوس نفسه المُوحِشة .

وقد اتخذتْ هاته الحجرة فى ظلامها وصمتها وحوائطها المتشابهة الدائرة حوله شكلَ بئر بعيدة المَهْوَى ، كأنما انطبق فمها فلا منفَذ لها ، وهو مُلْقًى فى قرارتها كأنه إحدى الهوامِّ التى تَأْوِى إلى جحورها فى بطون المغاور والكهوف !

وأحس السجين ضغطاً يتكاثف على صدره ، واحتبست أنفاسه ، فراح يتلمس الهواء جاهداً .

لقد أبرم القضاء منذ أيام حكمه فيه بالإعدام شنقاً ... وسيُنَفَّذُ الحكم يوماً ما ، إن تراخى قليلاً فهو آتٍ لا ريب فيه .

إنه ليذكر تلك اللحظة التى نطق فيها كبير القضاة بحكمه ، وقد تلقى هذا الحكم واقفاً شامخ الرأس بقامته المديدة ، وجسمه الصُّلب المكتنز ، ووجهه المستدير المُطَهَّم ذى العينين المتألقتين .

كان فى قفص الاتهام ، والحرّاس حواليْه ، وعيون الناس فى قاعة

المحكمة تنتهبه بنظرات التفحص والفضول ... وإنه لواثق أنه استقبل ذلك الحكم بجأش رابط وقلب جسور . ولم لا يكون كذلك وهو يشعر شعوراً قويّا ، فى تلك اللحظة التى سمع فيها الحكم عليه ، بأنه كائن موجود لم يُمَسَّ بسوء ، ويرى الناس حِيالَه أحياء مثله يستمتع بما يستمتعون به من مجالى الحياة ، فقاعة المحكمة أمامه رحبة تزخَرُ بالنور والهواء والضجة .

لم يتغير شىء ، ما زال على حاله حيًّا يتحرك ويتنفّس ، ويستطيع أن يتكلم وأن يبتسم ، بل يستطيع أن يضحك وأن يقهقه إذا أراد .

لقد صدر عليه حكم الإعدام ، ولكن أين منه ساعة التنفيذ ؟ كل جارحة من جوارحه تكذِّب أن حكم الإعدام نافذ فيه ... وتهيأ وقتئذ ليتحرك حتى يثبت لنفسه أنه ممتلىء قوة وفتوة ، وأنه جياش القلب بحرارة الحياة ، فلم يلبث أن أحسّ رِعْشَة تتمشّى فى أوصاله فتوهن ساقيه . وهمّ بأن يبتسم ، فأحس بعضلات وجهه تتقلّص كمن أجهش بالبكاء . أما الضحكة التى أزمع إطلاقها فقد ألفاها ترتدّ إلى حلقه متخاذلة . وأحب أن يتكلم بصوته الجَهْوَرِىّ الحاد ، شأنه فيما اعتاد من مناقشة وحِوار ، وأن يقول : ليس فى طوق أحد أن ينالنى بضرّ . فإذا بشفتيه تجمجمان بنغمة مختنقة ، قائلا :

ما قَتَلْتُ إلاّ منتقِماً لشرفى ... ربنا عادل ... الأمر لله !

وعَجِبَ لما أدركه من ضعف ، أليس هو الشيخ « عبد المُتَجَلِّى » عزيز قومه وعميد بلدته فى الصعيد ، رجل الدين والدنيا ، مَن أصاب

من علم الشريعة قدرا ومن السلطان والتحكم نصيبا ، مَن استطاع أن يوفق فى نظره بين روح التديّن وطابع الحياة ، ويستخلص منهما فلسفة فريدة له . الرجل الذى أقام نفسه ، بسطوة شخصيته ونفوذ جاهه ، حاكما مَهيب الرأى مَخْشِىّ الجانب ، يفصل فى المنازعات ، ويُنْزِل العقوبات بأصحابها دون أن يُرَدَّ له أمر أو نهى .

إنه ليعرف الحق والعدل أكثر من أولئك الحكام والقضاة الذين نَصَبَتْهم الدولة يقرّون الأمن والنظام . إنه يحكم بقلبه وضميره ، أما أولئك فيحكمون بمنطق القوانين المصنوعة . إنه وحده القانون والمحامى والقاضى . وهو فى ذلك كله عادل فى قسوته ، حكيم فى شدته . إذا اعتقد أن المتهم جان فهو جانٍ ما من ذلك بُدّ . إنه لشديد الاعتداد ببصيرته النافذة التى لا تخطىء ، فليس هو بمفتقر إلى شهود نَفْى أو إثبات ، وإلى مرافعة أو دفاع . بل إنه فى أغلب الأحيان ليس فى حاجة إلى أن يستنطق المتَّهَمين أو يستدرجهم إلى اعتراف . وكان فى أسلوب قضائه يقرر ما يراه وينفذه فى آن ، لا تعقيبَ لحكمه ولا استئناف .

وقد جرى على تلك الخطة لمّا أسرّ إليه أحدُ أعوانه « سعداوى » أن « ستيتة » حَقَّ عليها العقاب ، إذْ فَرَّطَتْ فى شرفها ، وخاضت فى حديثها ألسنة الناس . وكان النبأ شديد الوقع عليه ، فإن « ستيتة » شقيقته الباقية من إخوته الراحلين ، وهو لذلك يحمل لها كبيراً من الحبّ

والإعزاز ... و بعد أن استيقن من « سعداوى » أن الأمر جِدّ لا يحتمل التأويل ، أحسّ على الفور حَمِيَّةَ الشرف تَهُبُّ أعاصيرها بين جوانحه ، فأقسم أن يَثْأَر للشرف المثلوم ، وأن يغسِل ما لحقه من عار . وما عَتَّمَ أن أصدر فى دخيلة نفسه حكمه الفاصل على شقيقته وعلى شريكها فى الإثم ، ولم يَبُحْ بما تمّ فى محكمةِ نفسه لأحد .

أما التنفيذ فقد جرى على أهون سبيل ، تَرَصَّد لغريمه المتهم بهتك عِرض أخته وراء أَكَمَة فى مِنطقَةٍ غير مأهولة ، وما إن رآه فى الطريق آيباً إلى البلدة قُبَيْلَ الغروب ، حتى رماه بطلق نارى ، وهو يغمغم :

هذا جزاء الفاسق الأثيم !

وفى منتصف الليل دَلَف إلى مخدع أخته « ستيتة » وهى مغرقة فى سُبات ، فلم يزعجها بإيقاظ ، بل أخذ برأسها فوراً وأعمل السكين المسنونة فى رقبتها ، ففارت فى أوداجها ، حتى كاد يَهْوِى الرأسُ عن الجسد ، وهو يهمهم : الله أكبر ! ... فلتموتى أيتها الفاسقة الأثيمة !

وترك الجثةَ تختلج اختلاجاتها الأخيرة ، والدم يَشْخُب منها دَفَّاقاً .

ومضى يمسَح السكين فى قبَائِه ، ثم ذهب فاغتسل ، وأوى إلى فراشه ، ونام ملءَ جفنيه .

إنه لا يذكر على وجه الدقة ماذا وقع بعد ذلك من أحداث ؟ تَجَمْهُرُ الأهلين ، هَرْج ومَرْج ، شُرطة ورجال تحقيق ... ثم ألْفَى نفسه نزيلَ

السجن ... وترادفت الأيام ، وتوالت المشاهد ، وهو يتنقل بين محبسه ومكتب النيابة : شاهد يُقسِم ، ومحام يجادل فى صيحة واحتداد ، ومحقق يضرب المكتب بكلتا يديه ، وحُجَّاب يغدون ويروحون ، وشرطة يتراءون هنا وهنالك : يهزون الأرض بأحذيتهم الضخمة ، ويقعقعون بأسلحتهم المرهوبة .

تشابكت فى رأسه المشاهد واختلطت الأيام ، وتداخلت الحوادث ، وغشَّى ذلك كلَّه ضبابٌ متراكم . ولكن صورةً واحدة بينَ ألفاف هذه الصور الغامضة ظلّت ماثلة فى مخيِّلته واضحة الملامح لا تبرح مكانها من رأسه ، تلك هى صورة « سعداوى » الذى سَعَى إليه بتُهمة أخته ، وهو بين يدى المحقق يعترف أخيراً اعترافه الخطير الذى لم يكن فى الحِسْبان ...

إن اعتراف هذا « السعداوى » مازال يقرع سمعه بكلمات كأنها قذائف حامية صَخَّابة ... لقد أدلى الرجل أمام المحقق بأن اتهامه القتيلين فى شرفهما لم يكن إلاَّ تبليغاً مكذوباً ، ووشاية مقصودة ، وأنه إنما عَمَد إلى هذه المكيدة منتقِماً من الرجل القتيل لضغائن كمينة ، ومن « ستيتة » لأنها حَرَمَته ما كانت تُجْزِله له من عطاء .

إذن لقد وضح للشيخ « عبد المُتَجَلِّى » أن جنايته المزدوجة لم تكن فى موضعها . لقد قتل نفسين بريئتين منساقاً بدافع وهم وخُدعة ، قتل أختاً عزيزة كريمة وصديقاً وفيًّا أميناً ، قتلهما بلا جريرة كأنه يلهو ويعبث ...

وغَضَّ من بصره ، وجعل يَقْرِض أظفارَه بعنف ، حتى أدمى أنامله ، وصَعَّد زفراتٍ حَرَّى ... وسرعان ما لاحقه الرَّيْب : ليس بمعقول أن يقتل نفسين بغير حق . إن فِراسته لم تخطىء مرة ، و بصيرته لم تكذِبْه يوماً ... ولكن ماذا يصنع أمام اعتراف ذلك « السعداوى » بأنه واشٍ كَذُوب ؟!... وماذا يصنع بما أقنعه به محاميه من أنه قَتَلَ بلا مُوجِب ، وأن شهادة الشهود وقرائن الحادث كشفت هذه الحقيقة ساطعة ناصعة ؟!

وغامت الدنيا أمام عينيه ، وازداد المكان تجهماً وحلوكة .

ورفع رأسه ، فاصطدم بصره بهذه الجدران الكالحة البغيضة ، جدران البئر المظلمة التى لا منفَذ لها ... وفتح عينيه جهدَ إمكانه ، وراح يحملق تائه النظر ... وتمثلت له اللحظة التى نطق فيها كبير القضاة بحكم الإعدام : إنه ليراه الآن أمامه جليّ الصورة ، واضح القسمات ، منكبًّا على أوراقه ، فإذا رفع رأسه تراءت عيناه الصغيرتان خلف نظارته وهو يَرْكُز بصره دائماً فى موضع ثابت لا يعدوه إلى مِنَصَّة المحامين ولا إلى صفوف الجمهور ولا إلى قفص الاتهام ، كأنه لا يعنيه من هذا كله شىء ... وكان ذلك القاضى لا يفتأ يتابع حركة يده إلى رأسه ، يخلع طربوشه ثم يعيده مكانه ، فتظهر صَلعته ملتمعة وتستخفى سريعاً ... وقد نطق بحكمه فى صوت أَخَنّ ، ولهجة فاترة ، كأنه يتحدث إلى جار له حديثاً تافهاً لا يثير الانتباه .

و بينما كان الشيخ « عبد المُتَجَلِّى » منسرح الفكر فى هذه الأخيلة ،

إذ انتفض فى جلسته انتفاضة مباغتة ... كلا لن يُشْنَق ، ولن يمسه أحد بضرّ ... لقد قتل مَن قتل ثأراً للشرف ... إن أخته وصمتْ اسمه بل اسم الأسرة بالعار ، فحقّ عليها القتل ... ولكن أيكون قتل من قتل بلا أناة ولا روية ؟ أينسى ساعةَ دنا منه « السعداوى » والتحقيق آخذ مجراه ، وانكبّ على يده يغسلها بدموعه ويستغفره ، ويردّد بصوت متحشرج :

لقد خدعتُك يا « عبد المتجلى » ... لقد أثرت حفيظتك على بريئين . أختك طاهرة طُهْرَ الملائكة ، وصاحبك مخلص لم يخطر بباله أن يهتك لك ستراً ولا أن يلحق بك عاراً ... عفوكَ ، عفوكَ !

وكان يصغى إلى استغفار هذا « السعداوى » ولا يلفظ من قول . إنه يسأل نفسه الآن : لماذا لم يجبه حتى بكلمة واحدة يصبّ فيها عليه اللعنة ؟ لماذا لم ينقضّ على هذا الوغد ويصرعه بدفعة واحدة ؟ لماذا كان خاملا كالمعتوه لم يحرّك ساكناً ؟ إنه يذكر أن كل ما فعله ساعتئذ أنه ازْوَرّ ببصره عن « السعداوى » وهمهم :

إن الله لا يظلم من عباده أحداً ...

ثم طفرتْ من عينه دمعة ، فلم يمسّها ، بل تركها تتهاوى على خدّه .

إنه ليذكر كيف خلا به محاميه بعد ذلك ، وجعل يتحدث إليه حديثاً مسهباً مستفيضَ الحواشى ، لم ترسُخ منه فى ذهنه إلاّ هذه الجملة التى ختم بها قوله : « ليس للإنسان أن يحكم على أخيه الإنسان مهما يكن من أمر

يا شيخ « عبد المتجلى » . الحاكم هو الله ! » ...

وانصرف عنه المحامى ، وعاد هو إلى تلك البئر فى حلوكتها وصمتها المرهوب ، وظلت هذه الجملة ترنّ أصداؤها المفزعة فى حنايا نفسه ... لقد أحسّ بها تأخذ عليه سبيل تفكيره ، بل تلهب رأسه ، وتسرى فى أوصاله ، تَخِزُه وخز الإبر !

وألفى لسانَه يردّد ، وهو مطأطىء الرأس :

ليس للإنسان أن يحكم على أخيه الإنسان ، إنما الحاكم هو الله !

واعترته بغتةً نوبة بكاء حادّ ، وتمادى فى نشيجه وهو يشعر أن ليس لهذا البكاء من آخر . ثم أدرك أنه لا يجمُلُ به أن يبكى ... قد يمر على مقربة منه أحد الحراس فيسمعه ، فليكفكفْ دمعَه ، وليكبحْ ثائرةَ نفسه .

ورفع بصره وجمجم : إنما الحاكم هو الله !

أيكون فى سوابق أحكامه على الناس قد وقع فى مثل هذا الخطإ الذى وقع فيه ؟ وإذا فُرِضَ أنه كان عادلا فى أقضيته لم يَحِدْ عن جادّة الحق مرة ، فمن الذى نصّبه قاضياً يتحكم فى شؤون العباد ؟ وأولئك الذين أدانهم من أهل بلدته ، على فرض أنهم قد اقترفوا حقًّا جرائمَهم التى اتُّهِموا بها وتَصَدَّى هو للفصل فيها ، أليس لهم من ملابسات حياتهم ودوافع عيشهم وحدود تفكيرهم ما يَزُجُّ بهم فى مزالق الجريمة دون أن يستطيعوا لها رَدًّا ؟

أينسى كيف حكم بالجلد على سارق لأنه تسلل إلى أحد البيوت فاستولى على جانب من الذُّرَة ، وتبين بعد ذلك أن هذا السارق لم يُقْدِمْ على فعلته إلاَّ لِيُطْعِمَ بنيه الجياع ؟

ولماذا يذهب فى التفكير بعيداً ؟ ها هو ذا قد قَتَلَ متوهماً أنه يؤدى واجباً لا قِبَلَ له بالتغاضى عنه ، فهو فى حساب نفسه برىء شريف الغرض ، ولكنه فى حساب العدالة مجرم يستأهل أقصَى عقاب ...

إن أىَّ رجل لو كان فى مكانه ، وحاطت به هذه الملابسات ، وكان صاحب كرامة وحَمِيَّة ، لما تردَّد فى أن يفعل ما فعل ، ويقتل من قتل : المأمور الذى قبض عليه ، ووكيل النيابة الذى حقق معه وأدانه ، والقاضى الذى أصدر حكمه فيه ، هؤلاء جميعاً لو وقفوا موقفه من هذه الحادثة ، لما تردَّدوا فى أن يرتكبوا جريمته !

ليس لأحد أن يقاضيه ، ليس لأحد أن ينفذ فيه حكماً ، ليس للإنسان أن يحكم على أخيه الإنسان . إنما الحاكم هو الله ، الله وحده هو الذى يُقَدِّرُ على الإنسان ما كسبتْ يداه من خير أو شر ، فما يجوز لنا أن نجادل فيما اقتضت حكمتُه أن يكون . هى إرادة عُلْوِية تتصرّف فينا منذ الأزل ، فَلْيَدَعِ البشر حُكمَ السماء للسماء !

واعتمد الشيخ « عبد المتجلى » رأسه بيديه ، وما لبث أن راح فى سُبات لا يدرى أطال به أم قصُر ... ثم رفع رأسه ودار بنظره مستطلعاً حوله ،

وقد قامت بنفسه رغبة فى أن يتبين : فى أىّ وقت هو ؟ أفى مَهْبِط الغروب أم فى مطلع الفجر ؟ ليس من شىء حوله إلاّ الصمت والظلام !

وأحسّ بالوقت يمرُّ به الهُوَيْنَى ثقيل الخطا ، وشعر بأن تفكيره قد تعطلت حركته وجمد ...

لقد أضحى لا يفكر فى شىء على الإطلاق !

وانتابه شعور مفاجئ غريب ، شعور غامض لم يعرف كُنْهَه يتوثب من أعماق قلبه متلمِّساً له منفَذاً . . . وتكاثف هذا الشعور ، وازدحمت طبقاته يدفع بعضها بعضاً ، تريد الانطلاق .

وأُلْقِىَ فى رُوعِه أن الوقت الذى هو فيه إنما هو طلائع الصباح ، وتأكد له هذا الحَدْس . أنفحةٌ من هواء رطب لامستْ وجهَه هى التى ألقتْ فى رُوعِه هذا الشعور ، أم بصيرتُه هى التى أوحتْ بذلك إليه ؟

الشمسُ الآن فى طفولتها تتهادَى على بساط الأفق بَسَّامة تنشر الضياء وتُشيع النشاط والحركة فى رِحاب الكون . وهل نَسِىَ تلك الساعة الرائعة فى قريته ؟ لقد طالما استقبلتْه بواكير النهار فى مُنْصَرَفِه من المسجد وهو يُنَقِّل حَبَّات السُّبْحَة بين أصابعه مردِّداً الأدعية والابتهالات التى أَلِفَ أن يختِمَ بها صلاة الصبح ، ولقد طالما حَيَّاه نسيم السَّحَر وهو على المصطبة الفسيحة أمام داره ، وقد بُسِطَتْ عليها مفارِشُ صوفية زاهية الألوان ، وهو جالس يقرأ بعض كتب الشريعة والسِّيَر ، متذوِّقاً مستمتعاً بما

تُهْدِى إليه من غذاء رُوحِىّ ورضا نفسىّ !

على هذه المصطبة نَعِمَ حيناً من الدهر بصحبة صديقه المتهم بتدنيس شرف أخته ، قضى مع هذا الصديق أوقاتاً كلُّها مؤانسةٌ وصفاء ، وبادله أحاديثَ كلُّها مؤازرة وتعاون ، وكانت نهاية هذه الصداقة أن سَدَّد إليه طَلْقاً ناريًّا أرداه قتيلاً . وأمام هذه المصطبة تمتد الساحة الرحبة التى كانت تزخَر بطلاب الحاجات ومن يَفْزَعون إليه يطلبون قضاءه فى المنازعات . كان يقضى فى هذا المكان شَطْرَ نهاره ، يتناول فيه الطعام الذى تُعِدُّه أخته له بارعَ الطَّهْوِ مختلفَ الألوان شهيًّا .

أختُه ! . . . وتراءت له السكين المُخَضَّبة ، وهو يمسحها فى قَبائه ، ورأس القتيلة يتسايل منه الدم غزيراً .

أبريئة هى حقًّا ؟ لقد اعترف « السعداوى » بأنه كان أفَّاكاً مخادعاً فيما رماها به من تُهَمَة العار . . . وعلى فرض أنها ليست بريئة ، أفكان له أن يحاكمها وأن يحكم عليها ؟ . . . إن للكون خفايا وأسراراً لا يسوغ للبشر أن يحاولوا كشف الغِطاء عنها . . . الله هو العالم بالنِّيَّات والسرائر ، فله وحده الحكم ، وإليه يرجع الأمر كله !

وخُيِّلَ إليه أنه يسمع شيئاً : أحركةٌ هى أم صوت ؟ أرْهَف أذنيه ، وأحَدَّ من بصره . إن الوقت صباح حتماً . . . وفاجأته رِعْشَة . لقد حدث أنه سَمِعَ قبلَ ذلك أصواتاً وحركات فى مختلِف الأوقات ، ولكن

جسمه لم يكن يختلجُ لها أيَّةَ اختلاجة ، ففيم هذه الرِّعْشَة الطارئة ؟

إنه يُصْغِى فى اهتمام . . .

لا ريبَ أن هناك حركةً وهمهمة . أمِنَ الدِّهْليز صادرة ؟ أم من تلك الكُوَّة الضيقة التى عجزت عن أن تأذَنَ للضوء أن يرسل بَصِيصَه ؟ .

إنها أصوات . . . إنه وَقْع أقدام . . .

وأحس بِقُشَعْرِيرَةٍ تسرى فى جسده ، ووجد نفسه كأنما تحوَّلَ كله آذاناً صاغية .

أحُرَّاس إليه بالطعام قادمون ؟ أم . . . أم . . .

وتسمّرت عيناه نحو الباب يرقُبه .

وتعاقبتْ لَحَظات ، ثم فُتح البابُ إلى آخره ، وظهر مأمور السجن والطبيب وشِرْذِمَة من رجال الشرطة ، وتقدموا إليه على مَهَل .

وخُيِّل إليه أن حديثاً يُوَجَّه إليه ، وفَطَن إلى أن صدرَه يعلو ويهبط متلاحق الحركة ، ووضع أمامه أحدُ الحُرَّاس فَطُوره . إنه أجود فَطُور وقعت عليه عيناه منذ حَلَّ فى السجن . . . ووجد يده تمتدّ فى تباطُؤ وتصيب من الطعام لُقَيْمة ، وأحسّ بها تضطرب فى يده حتى كادت تسقط ، ولكنه استطاع أن يَضْبِط أنامله ، وأن يُلْقِىَ باللُّقَيْمة بين شِدْقيه . لقيمة واحدة لم يتناول سواها ، أردفها بِجُرْعَةِ ماء ، ثم قال بصوت خافض متقطع النبرات : الحمد لله !

ومسح فمه بظهر يده ، وردّد فى صوت أجهر من ذى قبل :

الحمد لله على نعمتك يا ربّ !

وإذا به ينهض من تلقاء نفسه ، وألفى الجمع يتأهبون للخروج . وقد عقدت ثلة الحرّاس حوله نطاقاً ، وساروا جميعاً .

كان ممتقع الوجه ، بارد الأطراف ، خفاق القلب ، ولكنه على الرغم من ذلك كله يكسوه ظل من السكينة والهدوء .

وشاعت على محيّاه بسمة غامضة : أبسمة أسى هى أم بسمة تهكم ؟

وكان لا ينفك يردّد : الحمدُ لله على نعمتك يا رب !

وسار فى الدهليز تغمره لجّة من تفكير متقلب عميق . إنه مقبل على رحلة طويلة مبهمة ، بيد أنه على يقين من رحمة الله ، إن الله واسع المغفرة توّاب . . . من هو الشيخ « عبد المتجلّى » بالنسبة لعظمة الخالق ؟ إنه لأهون من جناح بعوضة . الناس تجازى الناسَ سوءاً بسوء وإحساناً بإحسان ، أما اللهُ جلّ شأنه فإنه لن يقابل الذنبَ إلا بالعفو والرضوان .

وسيق إلى حجرة لا تختلف عن سائر حجر السجن إلّا بهذه المنصّة الصغيرة التى تدلّت عليها من السقف أحبولة مفتولة . . .

أتكون المشنقة ؟ ليست كما يتوهم الناس مرهوبة مفزّعة ، ليس فيها ما يبعث على العجب ، إنها لأشبه بأرجوحة الصبيان فى القرية !

وتجمّع إحساسه حولَ نفسه ، وتعمّق فى دخيلتها ، فلم يعد يشعر بما

حولَه ولا بمن معه . لقد أصبح نائياً عن المحيط الذى هو فيه بجُسْمانه . وكانت شفتاه تختلجان بالدعوات سريعة مختلطة .

وخُيِّل إلى الشيخ «عبد المُتَجَلِّى» أنه يسمع من بعيد صوتاً يتلو أسبابَ الحكم عليه .

وأبصر خلف الضَّبَاب الذى كان يَغْشَى عينيه شَبَحًا يدنو منه ويأخذ بكتفيه ، فألقى نفسَه يدفعه عنه .

ووجد قدميه تخطُوَانِ نحو المِنَصة .

وفى هذه اللحظة طرق سمعه صوتُ قائل :

ألا تشتهى شيئاً ؟ بماذا تُوصِى ؟

وأحسَّ يداً تُدِيرُ الأُحْبُولَة حول عنقه ، فأجاب بصوت بَيِّن :

إنى برىء . . . كلنا أبرياء . . . الله وحده هو الذى يملك الحكم على عباده !

قبلة مرهونة

هي ابنة عمِّه .

كلاهما في زهرة العمر ، وبَسْمة الصِّبا ، ولكنها تَكْبُرُه بأعوام قِلال . وقد جمعتْهما نشأة واحدة ، فتلازما منذ الطفولة الباكرة .

وكان أصفى وقت يغتنمه وقتَ لقائه إياها ، يرتقبه على شوق متجدِّد ، ويُعِدّ له العُدَّة كأنما هو يستقبل العيد .

آناً يساجلها الحديث ، وحيناً يجلسان معاً إلى المِذْياع يُنَقِّلان سمعيهما بين مَهابِّ الأنغام ، وطوراً يتناوبان كرسيَّ « البيانِ » متبارِيَيْنِ في العزف والغناء .

وكثيراً ما جعل يُجالِسُها النظرات ، مجتلياً مَفاتنها في نشوة واستمتاع . فإن فطنتْ إلى ذلك منه سَنَح على ثغرها ابتسام ، وأسرعت تجاذبه الحديث في شأن يشغَله .

إنها لتعلم ما يتناجَى في صدره من شَغَف بها وهُيام ، بيد أنها لم تبادله إحساساً بإحساس ، دون أن تدركَ لذلك من سبب ، فما يزيد شعورها نحوه على صداقةِ رفيق ، ومودّةِ ذي قُرْبىٰ .

وإذا خلتْ إلى نفسها نازعَها إشفاق عليه ، وربما انقلب هذا الإشفاق ضِيقاً به ، ضيق الأخت الكبرى أمضَّها أخوها الصغير بلجاجته وإثقاله .

وكلما خطر ببالها ذلك تراءى حِيالَها طيف آخر ، طيف الطبيب الذى تولى شأنها فى المستشفى ، فاستأصل لها الزائدة الدودية منذ أشهر .

قامة باسقة ، وعَيْن فوَّارة ، وشباب يانع !

فأين منه ذلك الغلام الغَرِير الذى أحاله الغرام شمعةً تذوب ؟ فهو بادى الضراعة ، سليب الإرادة ، ينحنى عند أية إشارة . . . على حين أن الطبيب يعلو بهامته ، ويستعزُّ بمهابته ، فتحسُّ الفتاة انطواءها فى ظِلِّه ، وفناءها فيه .

لا عجبَ فى أن تؤثرَه بالمكنون من قُوَّةِ العاطفة وجوهر الشعور .

لا يكونُ لها أن تستكثر ذلك عليه ، فإنها لتَجِدُه يطارحها رقيق الحديث ، ويُولِيها حُسْنَ الرعاية ، ويخصُّها بمزيدٍ من اللطف والإيناس .

ظل الطبيبُ يختلف إلى دار الفتاة بين الفَيْنَة والفينة ، يشرف عليها فى فترة استكمال العلاج ، فيطيبُ لها أن يطول معها مُكُوثُه ، وتتحيَّل لذلك جُهْدَ ما تستطيع .

ولا يفوتها أنه مغتبط بزوراته لها ، راضٍ عن الوقت الذى يقضيه فى مجلسها وإن طال ، إذْ يستمرئُ حديثَها فى طمأنينة وارتياح .

وقد تتلاقى عيناهما ، وتتلامس يداهما ، ويتراخى بهما الوقت على تلك الحال ، ثم يستدركان أمرَهما ، تعروهما اختلاجة المأخوذ !

وذاتَ يوم غدَا إليها ابنُ عمها على مألوف عادته ، فغَشِيَتْ مجلسَهما غاشيةٌ من الغموض والقلق .

كلاهما بين جنبيه خَبِيئةٌ يَضِيق بها الصدر ، وكلاهما يرصُد فرصةً تتيح له أن يخفف عن نفسه .

أمْشَاج من الحديث مبتورة ، ووَقَفات من الصمت مُتجهِّمَة .

ودَلَفَتْ يداهما إلى صحيفة مصوَّرة ، فانطلقا معا يعبثان بِتَصَفُّحِها عَبَثَ مغلوبٍ على أعصابه .

وعلى حينِ فجأة ، استقرتْ يداهما على صورة أخذتْ بِلُبِّهِما ، فجعلا يَرْنُوَان إليها فى إمعان . ولبثا كذلك فترة لايَحِيدان عنها ، ولا يَرْوَيَان منها على طول النظر .

كانت الصورة تُمَثِّلُ قُبلة من القبلات السينمائية الحافلة .

ورفعت الفتاة بصرها الهُوَيْنَى ، فخف بها الفكر إلى أفق رأت فيه نفسها بين ذراعى طبيبها الشاب ، وقد التحما فى قبلة ريَّانة ثائرة .

أما ابنُ عمها الفتى فقد اتجه بعينه إلى مُحَيَّا الفتاة يتوسمها ، ثم سدَّد نظرته إلى ثغرها فى تَشَوُّف ، وبين حناياه تَتَقَّد أمنية جامحة . . . هى أن

تتاحَ له يوما نَهْلة فياضة من ذلك النبع المعسول !

وندَّت من صدر الفتاة تَنَهُّدَةٌ جياشة ، فإذا الفتى يبتدرها مسائلا :

ما بِكِ ؟

فأجابته الفتاة ، وهى تسرِّحُ البصر فى الفضاء ساهمة :

هى أمنية تلوح فى خاطرى ، وإنى فى سبيل تحقيقها لراضية أن أبذُلَ كل شىء .

— أيسوغ لى أن أسألك : ما هى تلك الرغبة ؟

فلاطفت كتفَه ، حانيةً عليه ، وقالت :

ما زلتُ أعرف فيك هذا الفضول !

— أتَضِيقين بسؤالى ؟

فأرسلتْ ضحكة عابثة ، وأجابته :

حسبُكَ عِلْماً أنها أعزّ أمنية لى فى الوجود !

وما أسرع أن اكتسى وجهها برونق البِشر ، وسَبَحَت على قسماتها أطياف الأحلام .

ثم وقفت كأنها تتأهب لاستقبال أمنيتها الغالية ، تلك القبلة المشتهاة !

وألقَى الفتى نفسه يقترب منها ، وهو يهمهم :

هَبِى أن أمنيتَك قد دانتْ لك ، فهل لى أن أتمنَّى عليك شيئاً طالما صَبَتْ إليه نفسى ، وتعلّق به هواى ؟

فواجهتهُ لحظةً تُصَعِّد فيه البصر وتصوِّبه ، ثم قالت :

وماذا تتمنَّى عليّ ؟

— مَطْلباً لا يُعْيِيكِ أن تستجيبى له ، وهو عندى لا يَعْدِلُه مطلب أيّاً كان .

— أىّ مطلب هو ؟

— عِدِينى أولا ، وأنا أجاهرك به .

فتضاحكت وهى تتراجع عنه بخطوات خِفاف ، وما عَتَّمَتْ أن قالت :

يا لكَ من طفل غَرِير !

فأقبل عليها يقول فى اهتياج :

أتَعِدِينَنِى ؟

فَثَنَتْ عنه عِطْفَيْها فى تدلل ، وما لبثت أن عادت تُوليه وجهها باسمة الثغر ، وهى تقول :

حسناً يا رفيقى الصغير . . . لك منِّى ما تشاء إن تحققتْ أمنيتى . . . أفْصِحْ عما تتمنى !

ومدَّتْ إليه بصرها مَلِيّاً ، تتأمله ، فإذا هو قد تَضرَّجَ وجهه دفعة واحدة ، وتتابعت أنفاسه ، واختلجت أوصاله ، ونبس بهذه الكلمات متعثرة على شفتيه :

أن تَهَبِينى قبلة من ثغرك الحلو .

فوقفت تَحْدِجه فى صمت ، وقد تلألأت على فمها ابتسامة وضاحة ، ثم قالت :

قبلة ؟ !

فتدانَى منها ، شاخص البصر إليها ، تفيض عيناه بالأحلام ، وغمغم :

أجل ، قبلة . . . قبلة فوارة تشفى الغليل !

فصلصلت ضحكتُها عاليةَ الرنين ، وقالت :

أجادٌّ أنتَ فيما تقول ؟

فأجابها راعش الصوت ، مسحور النظرات :

الجِدّ كُلُّ الجِدّ فيما أقول !

فاستدارت على عقبيها ، وهى تقول له :

حقا لقد برهنتَ على أنك لما تَزَلْ طفلا .

وأرسلت ضحكات عابثة ، ثم تقدمت إلى المرآة تَتَوَسَّمُ مِثَالَهَا مَزْهُوَّةً بما ترى من حسن و إشراق .

وما هى إلا أن انسرحَتْ تفكر . . . إنه حقا طفل غرير . . .

ولكن لماذا تَعُدُّه طفلا ؟ أَلِأَنَّهُ استوهبها قبلة ؟ !

وهى ؟ أليس لها مثل هذه الأمنية عند طبيبها الشاب ؟ !

وشملتْ مُحَيَّاها اختلاجة . . . قبلة رَهْن قبلة ! . . . لن ينال فتاها

ما تهفو إليه نفسه ، إلا إن نالتْ هى من قبْلِهِ ما تَهْوَى . . . لن تعطى قبل أن تأخذ !

يا له من مسكين !... بل يا لها من مسكينة !

وترادفت الأيام . . .

وساعةً أَمَّ الفتى دارَ ابنةِ عمه ، كما هو شأنه ، وصعد الدَّرَج ، وقلبُهُ مُنْتَشٍ بما هو مُقْبِل عليه من لِقاء .

وأنهى إليه الخادم أن الطبيبَ الشابَّ مع الفتاة فى حجرتها .

فمكث فى البَهْو ينتظر انصرافه ، وسَرَى فيه اضطراب لا يَدْرِى مَأْتَاه ، فنهض يَذْرَعُ البَهْوَ بخطى متشنّجة .

وساقَتْه قدماه إلى باب الحجرة على غير عَمْد . إن بالباب فُرْجَة قليلة ، وإنه لمستطيع أن يَتَحَرَّفَ حتى يرى من فى الحجرة دون أن يراه أحد .

وسرعان ما أنكر على نفسه هذا الصنيع . . .

كيف يستبيح التطلع والتعرّف بغير وجهِ حقّ ؟

وأدْبَرَ عن الباب يقتلع خطاه ، ثم ألفَى قدميه تعودان به حثيثا إلى الباب ، وإذا هو يقف مرتقبا يسترق السَّمْع . . . إن أصداء من الهَمَسات الرِّقاق تتوارد على أذنيه ، وإنها لتثير فيه الفضول . . . فازداد إصغاؤه ، ثم وجد نفسه يخالس الحجرة النظر ، وقلبه دائبُ الخفوق .

وَيْلاه . . . هما يتعانقان ، هما يَذُوبَانِ فى قبلة حامية متقدة ، لا يُسْمع لهما إلا أنفاس مصعَّدة . . . يالله من هذه القبلة التى لا يهدأ لها أُوَار ، وكأنها فى امتدادها دهر موصول !

وتراخَتْ أوصاله ، والتمس أقربَ مقعد ، فتهاوى عليه ، لا يدرى أطال به الوقت فى جلسته أم قصر ، ولكنه يحسّ كأنما التقمتْه بئر مختنقة الجو ، بعيدة القاع !

وأخيراً شعر الفتى بالطبيب تتثاءب عنه الحجرة ، والفتاة بذراعه متعلقة .

وجاز كلاهما به ، لم ينتبها لوجوده .

وتابعت الفتاة سيرها تودِّع طبيبها الشاب !

وفيما هى عائدة إلى حجرتها وقع بصرها على الفتى ، وقد هَمَّ أن يَهْرُب من الدار ، ناجيا بنفسه من هذا الموقف العصيب .

فصاحت به الفتاة مرحِّبة بمَقْدَمِه ، ووَجْنَتَاها تضطرمان من بهجة ومِراح ، وعيناها تَرِفَّان رَفِيفَ النشوة والاهتياج .

ومثلتْ أمامه مُنْبَرِيَةً تقول :

أَبْشِرْ يا رفيق . . . لقد تحققتْ لى الأمنية . . . وحان أن تطالبَ أنتَ بما تتمنى !

فارتسمت على فم الفتى ابتسامة نكراء ، يتجمَّع فيها التقزز والاشمئزاز .

وغمغم قائلا :

هنيئاً لكِ ما بلغتِ من المُنَى !

فأخذتْ بيده تلاطفها ، وهى فى غفوتها لم تكد تصحو .

وقالت له :

إنى عند وعدى إياك !

وتدفقتْ فى حديثهما تقول :

ما أسعدَنى اللحظة ! . . اطلبْ ما شئت . . . فإنى واهبتُكَ ما استطعت . . . إنى . . .

فقاطعها ، وقد سَلَّ يده من يدها ، قائلا فى صوت متحشرج :

تستطيعين أن تَهَبى كل شىء ، ولكننى أنا لا أستطيع أن أقْبَلَ منكِ شيئاً !

ونَكَصَ عنها خُطُوات ، وهو يَقْذِفها من عينيه بنظرات يتجلى فيها البغض والحَنَق .

وانطلق يغادر الدار ، وقد صاح قائلا :

وَداعاً ... وداعاً إلى الأبد !

فى ظُلْمَةِ اللَّيل

أسطورة فرعونية

فى أصيل يوم من الأيام كان الشيخ « حابى » فى بستانه الصغير أمام داره المتواضعة يتعهد نُخَيْلاته ويتنزه . فاسترعى انتباهَه خَفْقُ أقدام ، فالتفت نحوَ مصدرِ الصوت ، فإذا بفتى يسير صَوْبَه وهو يدفع — فى جَهد — قدميه المُتْعَبَتَيْن ، وقد علاه الغبار ، فاختفت ملامحه . بَيْدَ أن الناظر إليه يستطيع أن يَلْمَحَ فى عينيه على الفور حيرة الغريب .

وكان الفتى يحمل فى يده صُرَّة . فخفَّ الشيخ للقائه ، وما إن اقترب منه ، حتى سمعه يقول فى صوت الهامس :

الشيخ « حابى » .

— هأنذا ... ما مطلبك يا بُنَىَّ ؟

ووجد « حابى » الفتى يتخاذل أمامه ، فأسرع إليه ، وأسنده إلى صدره محيطاً إيَّاه بذراعيه ، وقال له :

أمريض أنت ؟

— بل جائع !

وسار به « حابى » إلى داره فى رِفْق ، وأجلسه بجوار الباب على مصطبة عارية . وتركه برهة ، ثم عاد إليه بإبريق مملوء باللبن ، فأخذ يَعُبُّ منه الغريب حتى شَبِع ... وبعد أن تنفَّس طويلا تمتم بكلمات الشكر لِمُضِيفه ، ثم أطرق وقتاً ... وأخيراً رفع رأسه وسَرَّح بصره فى الشيخ ، والكلمات تتراءى حَيْرَى على شفتيه .

وابتسم الشيخ ابتسامة تنطوى على عطف وطِيبَة ، وقال :

تكلم يا بنىّ ، لا تخشَ بأساً ... ما حاجتك ؟ إن « حابى » لا يردّ حاجة الغريب !

فأمسك الفتىَ بيد الشيخ ، وضغطها فى انفعال ، وقال :

لقد حَدَّثونى أنك تأتى بالمعجزات ، فسعيتُ إليك أطلب معجزة !

فتأمل الشيخ وجه فتاه طويلا ، يحاول أن يَسْتَكْنِهَ ما خلف تلك الصفحة المُتْرِبَة التَّعِبَة من خَفِيَّة نفسه ، وقال :

معجزة .. لستُ كاهناً يابنى !

— أنت أعظم من كاهن ..

— أَفْصِحْ عن غرضك !

— إن قوة تعاويذك وعقاقيرك يا أبتِ مستَمَدَّة من روح الآلهة .

— أنا حكيم زاهد ، قد أنجح فى مداواة النفوس وتطبيب الأجسام .

وحدّق الفتى فى الشيخ بعين جاحظة ، ثم هَبَط أمامه ، وقال وقد تشبَّث بثوبه :

وحَقِّ « إيزيسَ » لتنتزعَنَّ نفسى من بين جوانحى ، ولَتُلْقِيَنَّ بها بعيداً عن جسدى !

— هَدِّئْ من رَوْعك .

— إنى أمقت هذه النفس الخاملة الميّتة ... لَتَخْلُقَنَّ خلقاً جديداً ، ولتجعلنّ منى رجلا ذا بأس واقتدار !

وجعل الشيخ يلاطف رأس الفتى ، ثم أنهضَه فى وداعة ، وأجلسه بجواره . و بعد حين قال له فى هدوء ورزانة :

ارْوِ لى قصتك يا بُنَىَّ ... إنى مصغ إليك فى انتباه !

ودعَم الفتى وجهه براحتيه ، وراح يرسل الطرف أمامه فى ذلك الفضاء العظيم ، حيث يبسط الغَسَق على الكون غِلالته السوداء .

وأنصت برهة إلى ما يحيط به من صمت شامل . ثم تكلم فإذا به يقول :

أنا « راموسى » . . ولكن ماذا يَهُمُّك من اسمى ؟ إن « راموسى » نَكِرَةٌ لاَ يُحِسّ وجودَه أحد !

— تكلم ...

— إنى أسكن على مَسِيرة شهر من هنا .

— فى بلدة « رنسى » ؟

— نعم !

— ذات المعابد الأربعة والمسلاّت الخمس !

فواصل « راموسى » حديثه ، وقد رقّ صوته وضعف :

وحيث تسكن الأميرة « أثمس » !

وطأطأ رأسه حيناً ، ثم رفع عينه بغتة ، وسدّدها فى وجه « حابى » ، وقال فى صوت غير متساوِق النبرات :

أريد أن أكون عظيما ... أريد أن أكون مثريا ... تزخَر خزائنى بالأموال .. أريد ...

فابتسم الشيخ فى هدوء ، وقاطعه قائلا :

إنه ليس بالطلب المستحيل .

فاستنار وجه الشاب بلمعة متلألئة ، وقال :

إذاً ستأتى لى بمعجزة !

— إن ما تسميه أنتَ معجزة يا بنىّ أسميه أنا أمراً قد يستعصى على بعض الناس ، ولكنه فى مقدور آخرين !

فَهَوَى « راموسى » على يدى الشيخ ، وانهال عليهما تقبيلا وهو يقول :

شكراً ، شكراً ! سأذكر لك ذلك الجميل ما حَييتُ ، وسأعوّضك عنه أضعافاً مضاعَفة .

ثم رفع رأسه ، وقال :

أما الآنَ فليس لى ما أقدّمه لك سوى ...

وتعثَّر لسانه بالكلمات ، فسكت ، وأشار إلى الصُّرَّة التى بجواره ، وفتحها بيدٍ راعشة أمام « حابى » ، فنظر فيها الشيخ ، فإذا بخليط من قطع المعادن ، بينها شىء قليل من الفضة والذهب .

وتابع « راموسى » كلامه وقد غَضَّ من بصره :

هى كل ما تَبَقَّى لى مما أملك !

— أبْقِها لك .

— إنها قليلة ... أعرف ذلك !

— كلا ، فهى كثيرة إذا كانت منك . وهذا يكفى ... ولكننى لستُ فى حاجة إلى عَطاء الناس .

— أبَتِ !

ونهض « حابى » فى هدوء ، وهو يقول :

ألا ترى يا بنىّ أن المَساء قد أقبل يحمل فى أعطافه برد الليل ، وأنا كما ترى شيخ ... ؟ !

— هَيَّا .

وتركا المصطبة ، ودخلا قاعة غير رحيبة ، بسقف منخفض ، تكاد تكون عارية إلّا من حصير وغِطاء .

وأشعل « حابى » مصباحه الزيتىّ ، ثم جلس وأراح ظهره على الجدار وقد طَوَى يديه إلى صدره .

وجلس « راموسى » قُبالةَ الشيخ متربِّعاً ، لا يفصِلُه عنه إلا المصباح .

وانقضت برهة لم يتكلم فيها أحد منهما .

ثم سُمِعَ « حابى » يُردِّد فى صوته الرزين :

إنى مُصْغٍ إليك !

فلم يحوِّل الفتى عينيه عن المصباح ، وقال :

كيف أبدأ لك قصتى .. حقًّا إنه لجنون ما فكرتُ فيه ... غير أنى لستُ نادماً على شىء ... لقد كنت أحيا يا أبتِ مُتَبَطِّلا أخرج من دارى المهدَّمة إلى النهر أتنزّه على شاطئه حيث بساتين الأمراء ، أقضى اليوم كلَّه متنقِّلا بينها أستمتع بمرأى الرياحين ، وأستنشق عَرْفَها الذَّكِىّ . فإذا تعبتُ استرحتُ بجوار الماء ، وأخرجتُ نايى أناجيه ويناجينى !

— أموسيقىّ أنت ؟

— لَمْ أجرِّب أن أصْفِر إلا لنفسى .

وأخرج « راموسى » من ثنايا ثيابه نايا من غاب ، ساذَج المظهر ، وأراه الشيخَ قائلا :

إنه زميلى الذى لا يفارقنى أبداً .. زميلى المطَّلع على سِرِّى ، العالم بما يجيش فى قلبى من أمان وأطماع !

— أمان وأطماع قد تبدو لك بعيدة التحقيق ...

— إننى أضعها بين يديك ، فافعل بها ما أنتَ صانع !

— ألم تكن راضياً عن حياتك الهادئة ؟

— كلّ الرضا !

— إذاً « هى » التى غيَّرتْ حالك .

— من هى ؟

— تلك التى ذكرتَ اسمها مُشَرِّفاً بذكره مدينةَ « رنسى » !

— نعم ، هى « أشمس » أميرة الأميرات ، وأقربُهُنَّ صلةً بفرعون الأعْلى !

— أتْمِمْ حديثَك . .

— رأيتُها يوماً تتنزَّه فى بستانها ، فَسَحَرَنى من أول نظرةٍ جمالها . رأيتُها ترتاد الخمائل فى حاشيتها ، فجعلتُ أرقبُها خلف دَغَلٍ من الأشجار ، وأضاءت نفسى على الفور شمس وهَّاجة كَشَفَتْ لى دنيا عظيمة كانت مختفية عنى ، وإذا بى أقطع على نفسى عهداً بأنها لن تكون لسواى ... ولما عدتُ إلى دارى ، وراجعتُ هَجَسات ضميرى ، هَزِئْت بنفسى وكلى سخط وألم ، ولكن عهدى ما زال ثابتاً على الرغم من كل شىء لا يتقهقر ولا يتزايل ، بل يتقدم فى جُرْأة وإقدام ... ولكن كيف أُنفِّذ ذلك العهد ؟ هذا ما كان يحيّرنى ويَحُزُّ فى قلبى . منذ ذلك اليوم جعلت

طريق إلى بستانها لا أعرف سواه ، أقضى على مقربة منه يومى أراها ولا ترانى ؛ فإذا ما صَعِدتْ فى قصرها انتحيتُ نحو الشاطئ وتخيرتُ مكاناً ظليلا ، وبثثتُ شكواى للناى ، فكنت أسمعُه أحياناً يهمس لى :

« لماذا لا تحاول التقرب إليها ؟ ... ... لماذا لا تكشف لها عن كوامن صدرك ؟ »

— ولماذا لم تذعن لما أوحى لك به صَفِيُّكَ الناى ؟

— أتريد منى أن أستمع لذلك الساذَجِ الغرير ؟ ألم أقل لك من هى ؟ إن فيها من دَمِ الآلهة يا أَبَتِ ! ... كلنا نعلم أن عظاماً تقدموا إليها بقلوبهم فردَّتهم خائبين ... لقد أمضيتُ يا أبتِ الليالى الطوال أفكر فى مصيرى معها ... لا بدَّ أن تقع مُعجزة تُحَوِّلنى من صعلوك بائس إلى أمير يفوق جميع الأمراء ، يرضاه فرعون وترعاه « إيزيس » ... وكان أن اشتدّ بى الضيق يوماً ، فجريت صَوْبَ النهر ، وهممتُ أن ألقى بنفسى إلى التماسيح ... فى تلك الساعة الفاصلة سمعتُ هاتفاً يقول لى :

« اذهبْ إلى « حابى » الحكيم ، فعنده تتمّ المعجزة ! » .

فتمتم الشيخ « حابى » :

أقال لك الهاتف ذلك ؟

— قَسَماً « بايزيس » ربة الأرباب لقد سمعتُ صوته واضحاً يرنّ فى أذنى ، وكانت التماسيح قد خرجت برءوسها تنظر إلىّ مُتَنَمِّرة ، فوجدتُنى

فى لحظة أقفز متراجعاً عن النهر ، وانطلقتُ أعدو ... أكنتُ أعدو حقًّا ؟ لا أدرى ! كنت أحس أنى محمول بقوة خارقة غير منظورة ... وفى الغد بعتُ ما أملك ، واستصفيتُ مالى ، وحملتُ زادى ، وسرتُ وَوِجْهَتى دارُك .

فأمسك « حابى » بيدى « راموسى » وضغطهما وهو يقول :

ستتم المعجزة يا ولدى ... فعوِّلْ عَلَىَّ .

— إذًا ستجعلنى أمير الأمراء ، وإذًا ستجعل من « أشمس » زوجة لى .

— إن علمى لا يتطاول إلى مثل هذه الأمور .

— كيف ؟

— كلّ ما أقدِر عليه أن أعملَ على تغيير نفسيتك .

— أَوْضِحْ يا أَبَتِ !

— سيتغيّر فيك كلّ شىء ... شمائلك الأصيلة ستنقلب إلى ضِدِّها : الخمول سيغدو نشاطاً متأجِّجاً ، والقناعة ستكون طمعاً صاخباً ، والرحمة ستَفسَحُ مكانَها للقسوة والعنف ... ستكون حياتك يا « راموسى » كالبركان الفوَّار ، لا يخبو له لَهَبٌ ، ولا يسكن له زئير !

فطأطأ « راموسى » رأسه ، وقال :

أَبَتِ !

— ليس ثَمَّةَ طريق ينيلك ما تطلب من ثروة وجاه ومجد إلا هذا الطريق !

وصَمَتَ « راموسى » فترة ، ورأسُه منحنٍ على صدره ، وبغتةً رفع وجهَه إلى « حابى » وقال :

ولكن حبّى ، حبّى . . . أيعتريه تغيّر ؟

— حُبُّكَ باقٍ بقاء الرُّوح الخالدة . . . ولكن !

— ماذا ؟

— أواثق أنك ستكون سعيداً بنفسك الجديدة بعد أن تَتِمَّ المعجزة ، وأنه لن يطول بك الحَنِينُ إلى نفسك الأولى ؟

— . . . افعلْ بى ما تريد !

ودارت عَجَلة الحياة : الأيام تِلْوَ الأيام ، والأشهر إثْرَ الأشهر . . .

وكان مَلِكُ الغرب قد دفعه الطمع إلى امتلاك « مصر » ، فسيّر إليها الجيوش الكثيفة ، فغزت المناطق الشّمالية فى غير عُسْر ، ثم اندفعت فى طريقها تكتسح أمامها جندَ الوطن . ولم يُجْدِ تعيين القائد الكبير « رودا » أميراً على الجيش الذى أرسله فرعون لإنقاذ البلاد . . . إذ أصيب « رودا » بهزيمة نكراء ، وقُتِلَ فى المعركة ، وكاد الجيش يتفكك ويندثر ، لولا أن قَيَّضَ الله له شاباً من بين المحاربين زَعَمَ عليه ، فأخذ يجمع شَمْلَهُ ويَبُثُّ

فيه رُوحاً جديداً ، فلم ينقض وقت طويل حتى انقلبت الهزيمة إلى هجوم ، ثم انتهى الهجوم إلى مطاردة للعدوّ فاكتساحٍ كامل له . وأصبح هذا الشابُّ قائداً للجيش ، ولقّب نفسه بالأمير الأسود ، إذ كان يرتدى السوادَ دائماً . . . ولم يقتصر هذا الأمير على تطهير البلاد من جيش العدوّ ، بل تابع زَحْفَه فى جُرْأة غريبة ، ففتح « مملكة الغرب » بأسْرها ، وأخضعها لفرعون ، فصارت تابعة « لمصر » .

كانت « رَنْسِي » المدينة ذات أربعة المعابد وخمس المِسَلّات حاضرةُ « مصر » الثانية ، تحتفل احتفالاً شائقاً بقدوم الجيش المنتصر ، وعلى رأسِه أميره الأسود ، فقد عاد محمّلاً بأسلاب وغنائم لم يأت بها قائد منتصر من قبل . وكان موكبُهُ حافلاً بالأسْرى العظام من الأمراء والحكام وسَرَاة الدولة المغلوبة . أما بقية الأسرى من الدَّهْماء فقد اكتفى بقطع أيديهم وأطْلَقَ سَراحهم ، حتى لا يعطلوا سير المَوْكِبِ بكثرة عددهم . ولكنه احتفظ بتلك الأيدى ، فحملها معه ليقدّمها إلى فرعون ، رمزاً للخضوع والطاعة !

وتمتْ مراسم الاستقبال فى عظمة وفخامة جديرتين بالقائد العظيم والفاتح الكبير ! . . . ولكن الأميرة « أشمس » أولَى أميرات البيت الفِرْعَوْنِيّ تخلّفتْ عن حضور الِاحتفال ، وأرسلت تعتذر لفرعون . وكان فرعون

يعرف شذوذ طباعها واعتزالها العالم ، فقبل عذرها على مضض . ولكن رسول الأمير الأسود جاءها يحمل من الأمير نفسه رغبته فى زيارتها قبل الغروب لأمر ذى بال ، فلم تجد مخلصاً من استقباله ، وأمرت أن يعدوا القصر لهذا القدوم .

وأخذ الأتباع يعملون بجد واهتمام فى تزيين القصر ، فما كادت الشمس تؤذن بالمغيب حتى برز القصر خلال الظلام كأنه قطعة من لؤلؤ تتألق . وانتشر الطيب الذكى فى شتى أرجائه ، فكأنه روضة فواحة من الأزاهر النضرة !

وجاء الأمير فى الموعد فى حفل من قواده ، ودخل القصر وهو يضرب بقدميه الصلبتين الأرض ضربات شديدة تردد صداها فى جوانب المكان ، وجعل يتلفت يمنة ويسرة بوجهه الرائع الذى تنم كل لمحة من لمحاته على رجولة قوية قاسية . وكانت لعينه الواسعة إشعاعات قوية باهرة لا تقوى عين أخرى على تحديها .

وما إن دخل البهو الكبير ، ورأى الأميرة واقفة فى صدره تحف بها وصيفاتها ، حتى توقف بغتة ، واتسعت حدقتا عينيه ، وتفتح وجهه فى لحظة بنور متألق تشيع فيه الأحلام . وأمسك بيد رفيق له بجانبه وشد عليها ، وطالت وقفته على هذه الحال ، والناس من حوله صامتون .

وأخيراً همس رفيقه فى أذنه :

مولاى ! إن الأميرة تنتظرك . . . تقدَّمْ !

وتقدم الأمير الأسود بخطوات لم تردِّدْ صَداها جوانب المكان هذه المرة ، وركع أمامها ركعة المُتَبَتِّل أمام ربّه ، فأنهضَتْه وهى تقول :

نحن الذين يجب أن نركَع أمام المنقذ العظيم !

ورفع وجهه إليها ، وقال فى صوت متخافت :

عفواً مولاتى ! . . . أمام هذا الجمال الإلٰهىّ الذى هو قَبْسَة من «رع» ونفحة من « إيزيس » يستشعر القائد العظيم ضآلةَ نفسه وتفاهة مجده !

— سيدى !

— ليس ثمة عظيم أمامك يا مولاتى ! ... كلّنا من أتباعك المخلصين !

وتهامس الناس فيما بينهم دَهِشِين حَيَارَى . . .

لَمْ يُشاهَد الأميرُ على هذه الصورة حتى فى حضرةِ فرعونَ الأعلى !

وبدأت الجموع تتفرق ، والمكان يخلو للضيف وربة القصر ، وأخذ القائد يَرْوِى وقائعه ، ويعدّد أسلابه ، ويذكر ما ناله من مال وضِيَاعٍ تتعادل معها أموال فرعون العظيم ... وختم حديثه قائلا :

إن الأميرة لتعلم أن فرعون بلا عَقِب ، وهو الآن شيخ مثقَل بالمرض ، وقد طالبته الكهنة بتبَنِّى أميرٍ يجعله وليًّا للعهد ، أميرٍ أَهْلٍ لهذا المنصِب الخطير .

— وهل وقع اختيار الملك على هذا المحظوظ ؟

فابتسم الأمير ابتسامةً ذاتَ معنى ، وقال :

لقد أتمّ اختياره سرًّا ، وسيعلنه غداً فى الهيكل الكبير !

وصمتت « أشمس » وهى تتفحص الأمير طويلا . . .

ثم انحنت فى خشوع ، وهى تقول :

يُسْعدنى أن أكون أولَ من يقدم طاعته لصاحب التاجين ، وَرِيث مُلْكِ الفراعنة العظيم !

فأمسك الأمير بيدها ، وقال :

هذا المُلْك العظيم ، وهذا النصر الباهر ، وهذه الأموال التى لا يستطيع أن يحصيَها أحد ، كلّ ما كَسَبْتُهُ وما سأكسِبُه أضعه تحت قدميك أنتِ يا أميرتى ويا مولاتى ! . . . أقدّم لك كلّ هذا مقابلَ شىء واحد منك .

فأسبلت الأميرة جفنيها ، وتابع الأميرُ حديثَه فى لهجة مشبوبة :

كلمةٌ منكِ يا « أشمس » تجعل هذا الوادى الفسيح بسكانه وكنوزه ، هذا المُلْك الضخم ، طوعَ يديك . قُولى كلمةَ الرضا ، ثم مُرِى فلن يَعْصِىَ لكِ أحد أمرا !

ونهضت الأميرة ، وهى تقول فى صوت حَبِيس :

ألا نذهب إلى المُسْتَشْرَف ، فنلقى نظرة على البستان ؟

فأجابها الأمير ، وهو حائر :

كما تريدين !

وذهبا إلى المُسْتَشْرَف ، وأطالت الأميرة النظر إلى الحديقة ، وهى تُصَعِّد

بصرها فى أشجارها وأزاهيرها . ثم قالت :

أيسمح لى الأمير أن أَقُصَّ عليه قصة صغيرة ؟

فأجابها ، وهو يزداد عَجَبًا :

إنى مُصْغٍ إليكِ يا أميرة !

— كان فى الزمان الغابر فتاة من الأثرياء ، من أسرة رفيعة النَّسَب ، تحيا ناعمة البال ، فى قصرها ذى البستان الكبير ، حياة تَرَف ورَغَد . ولم يكن لها مَطْمَع تصبو إليه إلا العثور على أليفٍ تنعَم معه بحبّ ووفاء ، شأنُها فى ذلك شأنُ كلّ فتاة . وحَجَّ إلى قصرها أعلى الأمراء شأنا ، وأعظمهم جمالاً وثراء ، يطلبونها للزواج ، فردّتهم بلا أمل .

— ولم ذلك ؟

— لأنها كانت مخدوعةً بنفسها ، مغرورة بجمالها ، فلم يَرُقْها واحد من هؤلاء الأمراء !

— ومن كانت تنتظر أن يتقدم لها ، بعد هؤلاء ، وهم صفوة البلد ؟

وترَيَّثت الأميرة فى إجابتها ، وهى تُسَرِّح طَرْفها فى الأفق ، حيث الظلام مقبلٌ فى وحشته وصمته وأسراره . . وقالت :

هى نفسُها لم تكن تدرى ، ولكنها على الرغم من ذلك كانت تنتظر وتؤمِّل !

— وهل طال انتظارها ؟

— كلا !

— إذاً عَثَرَتْ على ضالَّتها !

— نعم أيها الأمير . . .

— أكان قائداً غازياً ؟

— كلا !

— أوَزير خطير هو ؟

— كلا !

— إذاً هو مَلِكٌ من نَسْل الآلهة !

— ولا هذا أيضاً . . .

— من يكون ؟ !

وأرسلت الأميرة تَنَهُّدَة خفيفة ، وقالت فى صوت الهامس :

شابّ رقيق الحال ، مُرْهَف الشعور !

— وما مِهْنَتُه ؟

— ليست له مهنة . كان يقضى أيامَه يجوب البساتين ، ويتنزّه على ضِفافِ الأنهار ، يستمتع بمحاسن الطبيعة !

— إنها حياة أقربُ إلى التَّبَطّل والصعلكة . . .

فتمتمت الأميرة بلهجة الحالم ، وهى تستقبل بعينيها كتائب الظلام المكدَّسِ بعضُها فوقَ بعض :

قد يكون ذلك ، ولكنه الوحيد الذى استطاع أن يَقْهَرَ كبرياءها ، ويحطِّمَ تاج غرورها !

فَنَدَّت عن الأمير صرخة :

هو ! . . . أممكنٌ ذلك ؟

— أجل لقد أحبَّته الفتاة ... أحبت فيه ذلك الشاعر المُرْهَفَ الحِسِّ ، يُنْشِدُها أعذب ألحانه وأرقّها !

— أكان شاعراً ينظِمُ لها القصائد ، ويُنْشِدُها إياها ؟

— كان ينظِم قصائده بلا كلام ، ويُنْشِدُها إيَّاها من مِزْماره الرخيم ! . . .

فأصابت الأميرَ هِزّة شديدة ، وقال فى صوت جيّاش :

وهل تلاقَيَا ؟

— كلا ، فهى لم تره ، بل أُغْرِمَتْ به على البعد ! . . . ولا تدرى أرآها أم لا ؟ !

— لا ريب فى أنه رآها . . .

— ليس ذلك مؤكَّداً ، فأنظارُ هذا الشاعر الجوّال كانت أقصرَ من أن تخترق خمائل البستان أو جدران القصر ، لتكشف عن الفتاة وتلتقى بأنظارها !

— يالَلْفَتَى البائس ! . . . لو علم أنها تُضْمِرُ له هذا الحب لطار إليها ،

وارتمى تحت قدميها يلثمهما فى عبادة !

— من يدرى أيها الأمير ؟ . . . إنه فتى غريبُ الأطوار ، يعيش وفقَ هواه . . . قد يرفض حبها لو تقدمتْ به إليه !

— مُحال !

— لو كان يعلم كيف أحبته هذه الفتاة ، وكيف أنها ترضى أن تعيش معه ، تُقاسِمُه حياتَه الطليقة فى دنياه الرَّحْبَة الوضَّاءة ، لَقَبِلَ منها هذا الحب !

وتمتم الأمير بكلمات متقطعة ، وقد شدَّ بيده على حاجز المُسْتَشْرَف ، حتى كادت أصابعه تدْمَى . وتابعت الأميرة حديثها :

لقد بَرِمَتْ الفتاة بحياة الثروة والجاه التى تحياها ، وتوضَّحتْ أمامها بشاعتُها ، وأحست ثِقْلَها المُرْهق يَحْبِس أنفاسها . . . فرغبت أن تَفِرَّ من بيتها تستبدل الكوخَ الساذَجَ الهادئ بالقصر المنيف الصاخب ، والرداء الخفيف المزين بالأزهار بالثوب الثمين اللامع بأوصال اللآلئ . . . لقد بَرِمَتْ بكلّ شىء يحوطها ، واشتدت بها الرغبة أن تَهْرُبَ ، فتَلْحَقَ بشاعرها تقضى حياتها فى حِمَى مزماره !

— ولكنها لم تفعل !

— لقد كادت . . . ولكن الفتى اختفى فجأة .

— أَهَرَبَ ؟

— إن الناس يُرْجِفُون بموته ، فقد تكون التماسيح أكلته . . . ومِن ثَمَّ أسدَلَت الفتاة على حياتها سِترا غليظا يحجبها عن العالم أجمع !

— قد تَسْلُوه يوما ، فترضَى الزواج بأمير كبير !

— إن القصة تحدّثنا أن الفتاة قضت فى عُزْلَتها عامين ، وهى لم تتغير . . . إنها لا تطلب الأميرَ ولن تطلبه ، بل ستحيا مترقبةً شاعرها الفقير كما هو ، بردائه الساذَج وقلبه الكبير ... لن تستبدل به أحدا ، مهما يعظُمْ قدره ، ويتسع ماله !

— وهنا تنتهى القصة . . . أليس كذلك !

— تكاد تنتهى ، والبقية فى كلمتين ... أتريد أن أُتِمَّها لكَ ؟

فقال الأمير ، وهو يَضْغَط كلماته فى حسرة مكتومة :

إذا رغبتِ أتممتُها أنا لك !

فتمايلت الأميرة ، وعرَضتْ على وجهها ابتسامة ، وقالت :

كيف ؟ أوَ تعرفُها ؟

فقال فى شىء من السهوم :

إنَّ حِذْقَكِ فى رواية القصة قد جعلنى أَحْزِرُ خاتمتها !

وراح الأمير يُحِدُّ بصره فى نجوم الليل البعيدة ، كأنه يريد أن يستلهم منها كلمة نصح أو هداية . . . ولكن لم تَطُلْ وقفته على هذه الصورة ، فانحنَى أمام الأميرة يقول :

لن أنسَى ما حَيِيتُ حُسْنَ احتفائكِ بى !

وقبَّل يدها قبلة طويلة عميقة ، ثم ترك المكان لا يَلْوِى على شىء .

وَأَقَلَّتْه على الفور عجلته الحربية ، واستأذن رفاقه فى أن يَمْضِى وحدَه ...

وانطلقتْ به العربة هائمة فى أديم الصحراء ، تَشقّ أمامها سِجْفَ الظلام شَقًّا !

فى غفوة الأقدار

إذا اختار القَدَر امرءا فضرب عليه رقابتَه ، وأحاطه بأنظاره ، فإن ذلك المرء يحيا راسفاً بين قيود وأغلال .

ليس القدرُ إلا وليدَ هذه الحياة ، فيه الكثير من خصائص المخلوقات الدنيوية جميعاً ، بل إنه ليمثِّلُ هذه الخصائصَ أقوى ما تكون عُنفوانا وروعة .

والمخلوق الدنيوىّ لا يفهم من الرقابة والرعاية إلا أنهما فَرْضُ أنظمة وتقاليد وأوضاع يُنَمِّقها وَفق هواه ، ويتخذها ذريعةً إلى بَسْط سلطانه على من يدَّعى حمايته ورعايته .

وإذن فالقدر هو المثل الأعلى لتلك الظاهرة الحيوية ، ظاهرة الحماية والرعاية التى تكمُن فى طواياها نزعةُ الهيمنة والتأمُّر .

فإن قيل لك إن القدر يرعاك ويرقبك بعين عنايته ، فاعلمْ ، علمتَ الخير ، أنك قد أصبحتَ فى عِداد ذلك القَطيع الجَمّ ، يسير متراصاً مَحْنِيَّ الهام فى طريق مرسوم ، لا يفكر فى الحَيْدة يَمْنة أو يَسْرة ، ولا يَعِنُّ له أن يتطلع بأنظاره إلى الأفق النَّيِّر يستجلى مصدرَ ما يعُمُّ الكونَ من ضياء ،

ولا يدور فى خَلَده أن يُقدِّرَ ما قد يعترض طريقه من عقبات وعراقيل .

حَسْبُه أنه ساعٍ على أديمِ الأرض فى غير حرية ولا اختيار ، صاغرٌ يستملى إرادة القَدَر ، قانعٌ بذلك القسطِ من العطايا قلَّ أو كثر .

وما له لا يقنع بذلك ، وسواء لديه القليلُ والكثير ، ما دامت جَذوةُ النفوس خامدة ، وما دامت الأغلالُ تُثقِل الأيدى والأعناق ؟

على أن للقدَر ساعات ، أو قُلْ لحظات ، تغفو فيها عينهُ ، فلا يملك رقابة ولا رعاية . أو لعلَّ القدر إنما يَكِلُّ بصرُه بعضَ الكلال ، فيلتمس وقتَ دَعة ، ومُهلة جَمام ، فإذا هو يُسْبِل جفنيه أو يكاد .

فى هذه الساعات ، أو اللحظات ، تَتِمّ خوارق ، إن شئتَ سميتَها معجزات ، وإن شئت فقل ثورات ، فليست تسميتُها بذات بال . وهى على أية حال خروج على العُرْف المألوف ، وانحراف عن الطريق المرسوم . فيه تنقلب أوضاع ، وفيه تذهب دولة وتقوم أخرى .

فَمِنْ هذه الخوارق ما يترك أثراً عميقا لا يَعْفُوه كَرُّ السنين ، ومنها ما يمرُّ عَبْراً ثم يمحوه ذَيْل العفاء .

ومهما يكن من أمر ، فإن هذا الكون المُثْقَلَ بأعباء الأقدار وأحماله يغتنم تلك الغَفَوات الخاطفة ، يتخفَّفُ فيها مما يُثْقِله ، وينطلق ليتنفسَ خارجَ القيود والحدود .

وإنى لزعيم بأن العبقريةَ لم تكن إلا وليدةَ هذه الغفوات التى تغفوها

الأقدار ، فتنبثق العبقرية كالقذيفة العنيفة ، تَرُوع بانفجارها ، وتبهر بسطوع ضوئها ، وتصُكُّ السمع بدويِّها . . . وإنها بذلك لتشقُّ جديدا من الطريق لم يكن للكون به عهد من قبل .

وحين ينتبه القدر من غفوته ، يجد نفسه — كما يقولون — إزاء « أمرٍ واقع » فيُسْكِتُ غضبَه ، ويَكْظِمُ غيظه ، ويرفع سوطه ثانية يلهب به ظهرَ القطيع ، فيسير فى ذلك الطريق الجديد الذى شقَّته العبقريةُ على الرغم من إرادة القدر المسيطر .

ومن حسن الحظ — أو من سوئه — أن العبقريات لا تستطيع الظهور فى كل غفوة من غفوات القدر ، فلو أنها ظهرتْ كلما غفا لما استراح الكون من عناء الضرب فى آفاق جديدة مديدةٍ تتوالى فى غير مَهَل . والكون على تطلُّعه إلى التخلص من أثقال القدر ورقابته ، يُؤْثِرُ الدَّعَة والراحة أحياناً فى ظل العبودية والانقياد .

فأما مايقع كثيراً فى غفوات القدر ، فهو الأحداث الهيِّنة التى لاتسلَم من شذوذ وانحراف ، ولكن أثرَها لا يعدو نِطَاقها الضيق ، ومَجالها المحدود .

وربما كان شأن الخادمة « فكرية » مَثَلاً لهذه الأحداث الهينة التى تَنْجُمُ حين يغفو القدر . فإن الحادثَ الذى مرَّ بها ، وإن عَدَّه الناس من التوافه التى لا خَطَرَ لها فى مجرى الحياة ، تَعُدُّه « فكرية » نفسها

أخطر حادث يشغل الفكر والبال ، فهو عندها أمر جسيم ، وحدث عظيم ، حتى أصبح لزاماً علينا أن نذيعه على الملأ ، ليفتوا فى أمره بما يشاءون .

أول ما تجب الإشارة إليه أن « فكرية » نشأتْ فى كنف القدر يرقبُها ويحميها ، ويرسُم لها الخُطَط ، تأميناً لمستقبلها على نحو ما يريد .

هى فتاة يتيمة لم ترَ لها أمًّا ولا أباً ، ولا تعرف لها أحداً من ذوى القربى .

أيَجْمُلُ بالقدَر أن يترك فتاةً فى مثل حالها ، تتقاذفُها أسباب التشريد ؟ إنه لأكْرَمُ من أن يرضَى لها هذا المصير !

وكان أن اختار لها مهنةَ الخدمة ، فقد أدرك القدر بثاقب فطنته أن هذه المهنةَ ملائمة للفتاة ، مناسبةٌ لما أُوتِيَتْ من مواهب .

قضَى القدر بهذا الحكم ، فأصبحتْ « فكرية » خادمة مؤبَّدة فى بيوت خَلْق الله . . . تنقلتْ من أسرة إلى أسرة ، ولكنها ظلتْ كما هى ، تمارس أرذل الأعمال وأكثرها إمعاناً فى المشقَّة .

وقد استقرَّ بها المُقامُ اليومَ فى أسرة يقول عائلها إنه رئيس إحدى المصالح ، وهو يحيا مع زوجه وأطفاله الثلاثة وأمه فى الطبقة الثالثة من دارٍ حديثة البِناء فى أحد الأحياء المتواضعة .

وإذا استطعتَ أن تتمثل هذه الطبقة بأثاثها ومتاعِها وأهلِها موضوعةً جميعُها فى صِينية ، فتمثَّلْ أن هذه الصينيةَ محمولةٌ على رأس الخادمة

« فكرية » تروح بها وتغدو فى الحياة ، مهما تكاثرت فيها الصِّحاف ، وَثَقُلَتْ بها الوَطْأَة !

ولقد ظلت « فكرية » تحمل هذه الصينية الضخمة ، حتى قَرَّ فى ذهنها أنها ستحملها أبدَ الدهر ...

ما أَشْبَهَ « فكرية » بذلك الثور الذى يحمل الدنيا بما حَوَتْ من رزايا وأحداث وشجون ، وإن « فكرية » لتَجِدُ فى هذا بعضَ العزاء ، إذ تعلم أن الأقدارَ قد جعلتْها هى وذلك الثورَ الصبورَ الكريمَ فى منزلةٍ سواء !

لم تعد « فكرية » تستنكر شيئاً مما تُسَامُهُ من خَسْف ، وما تتعرض له من أذى . ولذلك لم تعد تُدِير فى ذهنها أن لها فى الحياة مذهَباً غير هذا المذهب ، فقد دار بها دُولاب العيش تلك الدورة الراتبة التى لا بَدْءَ لها ولا ختام ، كالحَلْقَة المُفْرَغَة ليس لها طَرَف ، فانسدلَ على عينيها غِشَاوة ، وران على نفسها صَدَأ ، ولم يبقَ فى مجال تفكيرها منفَذ ، فانطبعتْ على مُحَيَّاها سيماء البلاهة والتبلد والجمود .

تراها فى غالب أمرها فاغرةَ الفم ، تحدِّق فيما أمامها بعين تائهة النظر ، فإذا ما أدركها بعضُ الانتباه ، وحاولتْ أن تَشْحَذَ ذاكرتها لاسترجاع ما كانت تفكر فيه ، لم تبلغ مما تريد مَنالاً ... وأنَّى لها أن تقتنصَ شيئاً من غير شىء ؟

سلخَتْ « فكرية » من عمرها عِقْدَيْنِ من السنين ، لم تتبدلْ بها الحال إلا قليلاً ، فهى دائماً فتاة قميئة زادها الِامْتهانُ ضُموراً وقماءة ، وطَمَسَ ما عساه يكون فيها من مخايلِ الوسامة .

ولك أن تقولَ إن « فكريَّة » كانت تعمل فى ذلك البيت صباحَ مساء ، فقد كانت كرَقَّاصِ الساعة فى جيئة وذهوب ، تَفْرُغُ من أعمال البيت فى غُيُوب الشمس ، فتستقبلُها فى آناء الليل شواغلُ الأطفال ! . . .

وكان بالدار مُسْتَشْرَف أنيق طَلْق النسيم ، تتوخَّاه الأسرة لتتجمّع فيه مشتركةً فى حديث ومسامرة ، وإن « فكرية » لتَغْبِط الأسرة على ما تلقَ من نعيم فى هذا المُسْتَشْرَف الرَّخىّ ، ولاَ مأربَ لها فى الحياة فوق أن تَنْعَمَ بقسط من الراحة والنوم فى ذلك المكان المرموق ، تُلاطفها النَّسَمات الرِّقاق ، وتراسلها النجوم باللَّمَحات اللطاف ، ويَلفُّها الليل بِغلالته الساجية !

ولكن ذلك المُسْتَشْرَفَ العزيز ظل وَقْفاً على السادة ، لا تقْربُه خادمة لها مكانها المعلوم .

على أن هذه الحقيقة لم تكن لتمنعها أن تحلُمَ بالتنعُّم فى ذلك الفردوس ، بقدر ما فى صدرها من مجالٍ للمُنَى والأحلام !

بقيتْ « فكريةُ » على حالها تلك ، تدور فى هذا المَدار ، حتى كانت أُمْسِيَّة من إحدى الأماسِىّ ، فى عهد الحرب الماضية .

فى لحظةٍ من هذه الأُمْسِيَةِ أحسَّ القَدَر إرهاقاً وعناء مما يمارس من

جهود الرقابة والعناية بتلك الفتاة ، فإذا بجفنيه يتثاقلان ، وإذا هو تأخذه سِنَة من نوم .

إنها غفوة سانحة ، وإن عُدَّتْ فى الحساب أياماً وأسابيع . . . أين تقع تلك المدة فى حساب الأقدار ، وإن طالت فى حساب الزمن ؟ !

انطلقت صَفَّارة الإنذار تَعْوِى . فشمِلَ الناسَ ذُعر ، واضطربت الدار بما فيها من طبقات ثلاث ، وتوالى الهَرْج والمَرْج ، وعلا الصياح والعويل ، وانحدر الأهلون يزحَمُون السُّلَّم ، ويُهْرَعُونَ إلى المخبإ ...

وكانت « فكرية » من فرط التعب والإجهاد قد مَلَكَها نوم ثقيل ، فلم تنفتح عيناها إلا بعد أن خلا المسكن ، فنهضتْ تستوضح الأمر ، وأخذت تسائل نفسها :

ما سرُّ ذلك الاضطراب ؟

وفَطِنَتْ إلى أن ثَمَّةَ غارة ، وأن أهلَ الدار قد أَخْلَوْها ، فاندفعت فى غير وَعْى إلى الباب تطلب حمايةَ المخبإ مع الناس ، ولكنها لمحت المُسْتَشْرَفَ ينبسط فيه ضوء القمر ، ويرفرف النسيم . . . وفى ذلك الوقت كانت الجَلَبَة قد انقطعت ، وعَمَّ المكانَ هدوء وسكون .

إن « فكرية » لَتَرْجِعُ البصرَ فيما حولها ، فلا ترى فى البيت سيداً سواها ، وإن المُسْتَشْرَفَ بوسائده الوثيرة لكأنما يدعوها إلى التنعم والاستمتاع !

وظلت الفتاة هنيهة تتقاتل نزعاتُها : أتغادر الطبقةَ أم تَبْقَى ؟

وما لبث الهدوء الشامل أن سَرَى إلى نفسها ، فاستشعرتْ بعضَ الطمأنينة والسكينة .

إنها لتتمثَّلُ موقفها فى المخبإ مع الأطفال ، تحمل هذا وتحنو على ذلك ، وتُعانى أشتات المتاعب من هنا وهنالك .

وشعرت بقلبها يتفتَّح ، و بقدميها تخطوان إلى المُسْتَشْرَف ، و إذا هى تتهاوَى على الوسائد ، وتتقلب يَمْنَة ويَسْرة .

إن جسدها لم يعرف قبل اليوم إلا صـــلابةَ الأرض وخشونةَ الوِســـاد ...

ما أطيبَ المستشرف من مَضْجَع ، وما أنعمَ وسائدَه من فراش !

وطفِقَتْ تستنشِى نَسَمات العَشِىّ ، وتتمطَّى فى تلذُّذٍ واستمتاع .

وتواردت اللحظات ، وهى على هذه الحال ، تَشْعُرُ بأنها تَسْبَح فى عالم آخر ، ملؤه البهجة والإيناس .

و بغتةً قرعت سمعَها قعقعة مُدَوِّية اهتزتْ لها جوانب الدار . . . فألفَتْ « فكريةُ » نفسَها تَهُبُّ واقفة ، وتزمع أن تأخذَ طريقَها إلى الباب ، ولكن القذائف ترادفَتْ كأنها حُمَمُ البركان ، فإذا بأوصالها ومفاصلها يدركها تَخَلع واصطكاك ، وما هى إلا أن تهاوَتْ فاقدة الرشد .

و بعد وقت لا تدرِى مَداه ، ذهب عن « فكرية » الإغماء ، فاشرأبَّتْ

متطلعة حولَها ، فوجدتْ نفسها فى مكانها من المستشرف ، وقد توهجت الشمس ، وَمَتَعَ النهار .

كل شىء كما كان ، أو يكاد .

ولكن ما بالُ هذا التراب المَهِيل ، وتلك الحجارة المتناثرة ؟

ثَمَّةَ شىء قد حدث ، فأىُّ شىء هو ؟

مهما يكن من أمر فإن « فكرية » لم يُصِبْها أذى ، إلا ما ينتظمُ جسدَها من فتور ، وما يَرِين على عينيها من خَدَر .

ووثبتْ فى خاطرها على الفور أشباح سادتها من أهل البيت ، فعاجلتْها رَجْفة .

عليها أن تُهْرَع إلى مكانهم ، تقوم بواجبها نحوهم ، وإلا تعرضت للنَّكال ، وذاقتْ على أيديهم عذاب العقاب !

وانطلقتْ تريد الباب ، وكان مقفلا ، فدفعتْه بِجُمْعِ يدها ، وهمت أن تخطو ، فراعها أن ترى هُوَّةً سحيقة لم تكد تُدْلِى إليها أنظارها حتى أخذ برأسها دُوَار ، فأمسكت بالجدار زائغةَ البصر ، وأنفاسها تتلاحق . ثم ارتَدَّتْ وقد حوّمت فى خاطرها أفكار وصور .

وفَطِنَتْ بعد تفكير وَرَوِيَّةٍ إلى حقيقة ما جرى . . . فدرجَتْ فى محاذرة واحتراس إلى سُورِ المستشرف تطل على الطريق ، فتفزعتْ مما رأت حولَها من خَرِباتٍ فِساح تتراكم فيها الأنقاض والطلول ... وأخذت

تُنْعِم النظر هنا وهنالك ، وكأنما قد أصابها مَسّ .

وَيْلَها ! . . . لم تُبق الغارة من أبنية الحيّ إلا جداراً عالياً يحمل المستشرَف الذى كان مَخْدَعَها أثناء الليل ، مَثَلُه كمَثَلِ مَنَارة وَحْدَها قائمةٍ فى ملتطَم الموج !

وازْداد تلفُّت الفتاة فى جزع واضطراب ، وَندَّتْ من حلقها صيحات استغاثة مكروبة ، فاستجاب لها من الطريق بعضُ أصوات .

وبعد قليل رأت الناس يتجمهرون على مسافةٍ من أسفلِ الجدار ، وهم يُشْرِعُونَ أبصارهم فى خشية إلى تلك الأعجوبة . . . تلك الفتاة المعلَّقة بين السماء والأرض !

وأخذت حَلْقة الناس تتكاثف ، وظهر بعد لَأى ذلك الشرطىّ العتيد يلقى الأوامر والنواهى ، فى مِشْيَةٍ مُخْتالة وصوت جَهْوَرِىّ .

ومضت لحظات قلائل فى انتظار الإنقاذ . . . فبدا أعوانُ المطافئ فارعى القامات حِدَادَ النظرات تلتمع على رءوسهم الخُوذَات الصُّفْر ، ومن حولهم رجال الإسعاف فى مِشْيتهم الوديعة ونظراتهم الساكنة تزهو على رءوسهم القُبَّعات الحُمْر .

وسُرعانَ ما نَجَمَ وسط الجمع رجل كأنما انشقّ عنه أديم الأرض ، قد انتفخت جيوبه بالأوراق ، وامتدت يَدُه بآلة تصوير ، وهو يتواثب هنا وهنالك ، ويقول :

افْسَحُوا للصحفيِّ طريقاً !

ولبثت الفتاة تواصل استغاثتها ، وكلما تَجَمَّعَ الناس ازدادت من حماسة واهتياج .

وانعقد تحت المستشرَف مؤتمر تَدَاوَلَ فيه الناسُ الحديث فى شأن الإنقاذ : على أىّ نحو يكون ؟

الجدار متصدِّع يريدأن ينقضّ ، ولا بدَّ من تدارُكِ الخطر قبل وقوعه ، وفى كل لحظة تمرُّ مقامرة بحياة الفتاة !

وما هى إلا أن بُسِطَتْ مُلاَءة أخذ بحواشيها رجال المطافئ والإسعاف ، وصاحوا بالفتاة أن تُلقِىَ بنفسها ، وإلا تعرضتْ لِهُلْكٍ وَشِيك ...

ووقفت الفتاة تقدِّمُ رِجْلا وتؤخِّر أخرى ، وهى فى معركة من النزعات والمخاوف ، وخُيِّلَ إليها أن المستشرف يهتزُّ اهتزازَ التَّدَاعِى ، فاشتعلتْ فيها العزيمة فجأة ، وألقت بجسمها فى الفضاء ، على حين وقف الصحفىُّ بمصوِّرَتِهِ يلتقط الصورة الفريدة لإنسان يُلْقِى بنفسِه إلى الموتِ ، فراراً من الموت !

وسقطتْ الفتاة على الملاءة تشملُها غيبوبة ، وما إن لامست قدمُها الأرض ، فاستعادت وعيَها ، حتى جعلت تقلِّب فى الجمعِ نظراتٍ ذاهلة ، وما عَتَّمَتْ أن استبدَّ بها ضحك موصول .

وتحلَّقَ حولها الناس يسائلونها ، ورجال الإسعاف يتفقدونها ، وتطاولت

إليها الأعناق تَتَمَلَّى هذه الأعجوبة ، فلا تخطو خطوة حتى يزدحم طريقُها بالخلق .

وشعرت « فكرية » بأنها مُلتقى الأنظار ، وقِبْلَةُ الاهتمام ... ما تلفظُ من قولٍ إلا التقطته الناس بآذانٍ عَطْشَى ، وما تومئ أو تشيرُ إلا أثارتْ الدهشة والإعجاب .

وزُهِيَتْ نفسُها بتلك الآلة المصوِّرة التى تُحْصِى عليها حركاتها أنَّى سارت !

و برزتْ لها من الصفوف امرأة حَيْزَبُون بادية الشيب ، ترتدى السواد ، فى مظهر من وقار مصنوع ، وإنك لتستطيع أن تقرأ فى أسارير وجهها المعروق حياةَ المغامرة والجرأة ، ولا يعوزك مِصْدَاقُ ذلك فيما تسمعه من صوتها العريض الذى يمتلك الآذان .

اقتربت المرأةُ من الفتاة تُبَسْمِل وتُحَمْدِل ، وتمضى فى تعويذات وأدعية ، وتُضْفى على شباب « فكرية » ووسامتها حُلَّةً من الإطراء والإغراء ، فاهتزت الفتاة لهذا الحديث ، إذ كان أولَ ما يطرُقُ سمعها فى مراحل حياتها من تمدُّح وثناء ! ...

والتفتت طَلْقَةَ المُحَيَّا إلى المرأة ، فاستأنفت المرأة تثنى وتمدح ، ثم جاذبتْها حديثاً لم يَطُلْ ، ولكنها عرفتْ به من شأنِ الفتاة مافيه غَناء ! يتيمةٌ لا عائل لها ؛ فأما الأسرة التى كانت الفتاة خادمةً عندها ،

فلا ريب أن الغارة قضت عليها .

كانت تلك المرأة الحَيْزَبُون فَطِنَةً نفَّاذة البصر ... من نظرة واحدة ألقتها على الفتاة استبانتْ لها سرائرُ نفسها ، فعرفت أنها غُنْم جدير بالاهتمام .

وما أسرعَ أن عرضت المرأة بيتها على الفتاة تنزل فيه ضيفاً مكرَّماً ، ريثما يستقرّ بها الحال ، فلم تجد الفتاة مَحِيصاً من القَبول .

أصبحت المرأة لهذه الفتاة هادياً ورائداً ، بل لقد أصبحتْ لسانَها الناطق .

فإذا ما أقبل امرؤ يستوضح شأنَ الفتاة وما جرى لها من مغامرة ، تَصَدَّت له المرأة تجيب ، حتى إنها لتصف تلك السقطة الرائعة ، كأنما هى صاحبتُها !

ورافقت الفتاة تلك المرأة إلى بيتها ، فلقيتْ منها غايةَ الحفاوة والإعزاز ، وقضت يومها هانئة رافهة العيش ، ترفُل فى ثوب قشيب أنيق .

وفى الغد خرجتْ الصحفُ إلى الناس تحمل أنباء الغارة الشعواء ، وما كان لها من أثر وبيل ، ولكن قصة الفتاة وأعجوبةَ الجدار المعلَّق كانت واسطةَ العِقْد فى هذه الأنباء . فعَجِلَت المرأةُ بهذه الصُّحُف إلى الفتاة ، تُرِيها صورها ، وتُلقِى على سمعِها ما كُتِبَ فى شأنها . فامتلأت الفتاة من عُجْب وازدهاء ، وسرعان ما توردتْ وجنتاها ، والتمعتْ عيناها ، وبدتْ مبسوطة القامة ، ناهدةَ الصدر ، فأكسبها ذلك بهاء ورُوَاء زانه ثوبُها القشيب الأنيق .

وتوافدت على الدار أفواج المتطلعين يستزيدون من أنباء الفتاة ، ويرغبون فى إمتاع أنظارهم بهذه المعجزة الحيَّة ، بطلة الغارة ، تلك التى انفردت بالنجاة على نحو طريف ، فى حين أن العشراتِ من جيرانها قد أصبحوا حُطاما تحت الرَّغام .

وما كانت المرأة تَضَنُّ على الرُّوَّاد بما يشفى غليل الفضول ، فكانت تحتفى بِمَقْدَمِهم ، وتجلس هى وضيفتها إليهم ، وتتولى بنفسها رواية القصة ، وتطرِّزها بالتزيّد المُطَّرد ، حتى غدت حقيقةُ الواقعة فرعا ، وغدا الخيالُ المَزِيدُ أصلا .

وبينما المرأة تروى القصة ، تظل الفتاة مصغيةً يَقْظَى ، حتى انتهى بها الأمر إلى اعتقادِ ما تصوغ المرأة من فضول ، فما كان عقلُها بقادرٍ على أن يميز بين ما جرى وما يُرْوَى .

تواصَلَ اهتمامُ الناس بتلك الطُّرْفَة الإنسانية ، فتواردوا زَرافاتٍ على الدار فى اليوم بعد اليوم ...

وما لهم يزهَدون فى تلك الطُّرفة الرائعة ، وهم مايكادون يلمحون فى الطريق حَدَثا من الأحداث ، من نحو صِدَامِ سيارة أو ترام ، أو مشاجرة عابرة ، أو شأنٍ غير مألوف ، إلَّا نَسُوا أنفسَهم ، وعَدَلوا عن طريقهم ، فتجمعوا يُشبعون نَهَمهم برؤية صريع يُحْتَضَر ، أو جريح يئِنّ ، أو ممسوس يَهْذِى ؟

وأىُّ تثريب عليهم فى أن يفعلوا ذلك ، وهم فى عَجَلة الحياة الراتبة

مسوقون ، يدركهم سأم التكرار ، وملالةُ المألوف ، فتشتدُّ حاجتهم إلى ما يلهب العاطفة ، ويثير اليقظة ، من منظرٍ جديد ، ومشهدٍ طريف ؟ !

وتتنقَّل فى الدار أكواب المرطبات ، والفتاة بين الجمع كأنها عروس يوم الزِّفاف ... تختلط بين جوانحها مشاعر الابتهاج والاهتياج !

عَرُوس ...

الحق أن كل شىء كان يمهِّد لذلك الحادث السعيد .

كان حديث العُرْس يعتلج بين الصدور ، وتتناجَى به النفوس ، وإن لم تَنْبِسْ به الشفاه !

أخليقةٌ هذه الفتاة حقًّا بأن تكون عروساً مكرَّمة تتهافت عليها القلوب ، وهى التى كانت إلى الأمسِ القريب فى منزلة الهوان ، لا يَعْبأُ بها أحد ؟

لقد توارت خادمة الأمس فيمن توارَى من صَرْعَى الغارة ، وما تلك التى تتجلى اليوم على الملإ إلا بطلة تبهَر العيون .

إن الرجل ليأخذه اللألاء ، وإن كان زائفاً موقوتاً ، وهو بحكم عُنْجُهِيَّته وأنانيَّته يأبَى أن تظهرَ عليه المرأة وتُنافسَه فى مجالات التبريز ، فلا يكاد يلمح امرأة توشك أن تُشْرِقَ فى مطلع من مطالع المجد ، حتى تراه قد أسرع إليها يضرب عليها رُواقَه ، ويمدُّ لها ظله ، أو هو يوهم نفسه بأنه يَهبُها الحمايةَ والصون !

ومن الرجال كثير طلبَ المجدَ فباء بالإخفاق ، فتراه يلتمس العِوَضَ

من كل باب ، فإن بَدَتْ له امرأة ذاتُ صِيت أو منصِب ، آثَرَ أن يكونَ لها زوجا ، حتى تُضْفِيَ عليه من صيتها أو منصِبها مجداً طالما كان فردوسَ أحلامه المنشود !

كذلك نجمتْ فكرة الزواج ... زواج « فكرية » التي أصبح يلمَع اسمها فى محافل الناس وأندية السُّمَّار .

وكان السابقَ إلى الجهر بالفكرة رجل جَسُور من ذوى المغامرات ، لم يبق من شهرته إلا شارب مفتول ، وكَتِفٌ مَلْأَى ، ومن وراء ذلك ثروة طيبة . فأفضى بفكرته إلى المرأة الحَيْزَبُون ، فأودعتْ قلبه أملاً كبيراً ، ووعدته عونا كريماً ، فأغدق على الدار هداياه وعطاياه ، وانصرف مشكوراً يرتقب اليومَ الموعود ...

وما إن بارحَ الدار حتى تعاقب عليها ألوان من الخُطَّاب ... هذا جَزَّار من أثرياء الحرب ، يمتاز بأصابعَ ضِخام رُصِّعت بالخواتيم البراقة ، و « بُلْغَةٍ » أصيلة تلتمع صُفرتها الفاقعة ، وقد هَفَتْ نفسه إلى أن يضيف إلى متاعِه تلك البطلة ، استكمالا لما عنده من ضروب التُّحَف والطرَف !

وما إن فاتحَ المرأة الحَيْزَبُون حتى أودعت قلبَه كبيراً من الأمل ، ووعدته كريماً من العون ، فأفرغَ ما فى جيبه فى يدها ، وانصرف مشكوراً يرتقب اليومَ الموعود ...

وطَفِقَ الخُطَّاب يطرُقون الدار بهداياهم وألطافهم ، ويَصْدُرُونَ عنها ،

مِلْء حقائبهم وعود وأمانىّ ، على حين تسترسل الفتاة فى تدَلُّلها ومغالاتها ، وتطمئنُّ المرأةُ الحيزبون بما يُفاضُ عليها من خير كثير ، ورزق كريم .

وكانت المجلات قد آنستْ فى شأن هذه الفتاة مادة شائقة للحديث ، فتفننت فى تفصيل الموضوع ومجاذبة أطرافه ، وعُنِيَتْ بتزيين صفحاتها بأنواع من صور الفتاة على اختلاف الأوضاع ، فازداد الخطّاب إقبالاً ، وزَخَرَتْ بهم الدار ليلَ نهارَ ؛ كأنها قاعة للمزايدات يشتدّ فيها التنافس ، فارتفع سعر الفتاة بهذه المضاربة ، حتى جاوز المُنَى والخيال ... وبات الأمر معركةً بين متنافسين تأخذهم حَمِيَّةُ المغالبة ، وتأسِرُهم نشوة التملك ، ويحدوهم نِداء الظَّفَر ؛ فهم متقاتلون متفانون ، لا إغلاءً بالسلعة المعروضة ، ولكن إحرازاً لقصب السَّبْق ، وإمتاعا للنفسِ بلذةِ التَّغَلُّب !

وأوشكت الفتاةُ أن ينتهىَ بها الأمر إلى رجل من الأثرياء الذين أقعدهم طولُ العمر ، وكان لا يكاد يدرى شيئاً من شأن هذه الفتاة . وقُصارَى أمره أن مَثَلَه كمثلِ امرئ فى بعضِ طريقه ، صادفَتْه جموع متدفقة ، فَصَبَأَ إليها قليلا يتبيَّن ، فما هو إلا أن غمرتْه الجموع ، وتشابكت وراءه الصفوف ، فلم يجد إلى الطريق مَخْرَجا ، ولم يلبث أن سايرَ الجَمْعَ فيما هم مقبلون عليه .

أوشكت الفتاة أن تكونَ لهذا الرجل زوجا ، لولا أن وقع ما ليس فى حِسْبانِ أحد .

هنا اختلجت أجفان الأقدار، فكان ذلك إيذاناً بانقضاء الغفوة، واستئناف الصَّحْوَة!

وما إن انطلقت من عين الأقدار أولُ شعاعة، حتى نفذتْ تتفقد رَبيبتها الفتاة، خشيةَ أن يكون قد أصابها مكروه.

فى ذلك الوقت توالت الغارات عنيفةً أشدَّ العنف، تحمل إلى النفوس ألوان الفزع، فنفرَ كثير من الناس عن العاصمة يلتمسون المأمَنَ البعيدَ، وكان فى طليعة النافرين وَجِيهُنا الثريُّ الذى كاد ينتهى إليه أمر الفتاة.

وشُغِلَ الأهلون، كلٌّ بشأنه، وانصرفت الصحف إلى ذلك الجديد المتواتر من أنباء الغارات وأفاعيلها فى الناس، فأسبل النسيانُ سجوفَه على «فكرية» و بطولتها التى طوت صفحتَها مُحْدَثَاتُ الأيام!

لكلِّ ساعةٍ فى الحياة بطولتها، ولكل طالعةٍ أُفول، ولكل خافقةٍ سكون!

فى لحظاتٍ تغيَّر مصير تلك التحفة التى علا قدرها وغلا مهرها فى سوق المزايدة، فأصبحت اليومَ بضاعة مُزْجَاة!

ووجدت الفتاة نفسَها تدفعها إلى الشارع يَدُ المرأة الحيزبون. فتداولتْها الطرق، حتى أسلمها التِّيهُ إلى دار ذاتِ ثلاثِ طبقات، وهنالك فى الطبقة العليا تلاقتْ هى وسادتُها الذين انقطعت بهم صلتُها، حتى حَسِبَتْهم فى ذمة المَنُون.

واسترجعت الفتاةُ مكانتَها فى الأسرة تُنافِسُ ذلك الثور ٱلْجَلِيدَ الحَمُولَ الذى يَضَعُ على قرنيه متاعبَ الأرض .

ومضت فى عملها كسابق عهدها ، لا تشير إلى ما كان من أمرها يومَ الغارة ، ولا ما كان من بطولتها التى طبَّقت الأرجاء ذيوعا وشهرة .

ونالها العَجَبُ مما ترى . . .

أكذلك تنقلب بها الدنيا من حال إلى حال ، دون أن تستبقىَ فى يدها شيئاً من نعيم مَضَى ؟

وشَمَلَها استسلام ، فما كانت تَتَسَخَّط ولا تَتَشَكَّى ، وكلما خطرت ببالها تلك المغامرةُ الفريدةُ فى حياتها الغابرة ، راجعتْ نفسَها تتساءل :

أكان ذلك حقا واقعا ؟ أم زيفَ أوهام ، وباطل أحلام ؟

ولكن الفتاة لم تصل إلى فصل الخطاب ، وصِدْقِ الجواب ، ولن تصل إليه يوماً من الأيام .

ولا غروَ أن تختلط الحقيقةُ والخيالُ فى رأس « فكرية » الساذَجة ، فليس فى عقلية الوجود الأكبر ، وفلسفة الكون العجيب ، ما يميِّزُ بين الحقائق والأخيلة تمييزاً طابَعُه الثباتُ والاستقرار !

عَرُوسٌ من قِطن

فى بواكير شبابى الغارب ، كنت أختلفُ إلى الريف ، طَلَباً للمتعة بتلك الحياة الرَّخِيَّةِ الهادئة .

وما كان أطيبَ الحياةَ الريفيةَ فى تلك الأيام ... فقد ظلت تتمثل فيها الطُّمَا نينة والسكينة ، ويَشِيعُ فى جَوِّها رُوح من الصفاء والسلام .

بل ما كان أطيبَ دنيا الأمس ، إذا قِيستْ بما نكابده فى عهدنا العتيد من حيرة وقلق ، وتوجُّس من الخطوب ؛ ومن حرب تذوب فى حَرِّها الأنفس ، إلى حرب تَصْلَى نارَها الأعصاب .

وإنها لكثيرةٌ تلك المباهجُ التى أُولِعْتُ بها فى الريف ، وكان أفتنَها عندى وأحبَّها إلىّ ، تلك الأُمْسيَّات الوادِعة ، أقضيها فى مُسْتَشْرَفِ دارنا العتيقة ، وقد بُسِط عليه الحصير ، عن كَثَب من الحديقة .

وأَلِفْتُ فى هذه الأُمْسيَّات أن يجلس إلىَّ البستانىُّ الشيخ ، وأن أستمع إلى قصته الفريدة التى لم يكن يَلْهَج بغيرها .

قصة تبلغ من السذاجة حدَّ الإفراط ، يحلو له دائماً أن يردِّدها ، كما

يحلو لى أن أُصغِىَ إليها ، دون أن تدركَنى مَلالة التكرار .

إنها هى هى ، مقدمتُها ، وجوهرُها ، وخاتمتُها . لا تزيد ولا تنقص ، ولا يعترى روايتَها تغيير ولا تبديل .

طالما أرهفتُ سمعى له ، وتُجاهَ عينى خمائلُ من أشجار النارنج والليمون ، تنمو على فِطْرَتها ، لا تجد من ضروب التشذيب والتعهُّد إلا جهد ما يستطيع ذلك الشيخ الفانى .

إنها خمائل متشابكة ، يُعْييكَ أن تلتمس بينها مَسْلَكا ، حتى ليخيَّل إليك أن تتساءل :

كيف يجد الماء مَسَاغَه بين هذه الألفاف ؟

ما أشبهَ حياةَ هذه الحديقة الفِطْرِيَّة بتلك الحياة البُدَائية التى يحياها شيخُها العتيد !

وليس عجيباً أن يظلَّ ذلك الشيخ راوية أميناً لقصته المعادة ، فهى جزء متمم له ولحديقته . من هذه العناصر الثلاثة تتألف حياةُ هذا المكان ويتكامل انسجامُه ... ذلك الانسجامُ الموسيقىُّ الذى إن فَقَدَ جزءاً من إيقاعه ، بطل سحره ، وبدا نُشوزُه !

وما أنسَ لا أنسَ مجلسَ ذلك البستانىِّ متربِّعاً قُبالتى ، وبين يديه عُلبة التبغ ، تعبَث أصابعه بين الفينة والفينة بما فيها ، فإذا به قد فرغ من إعداد لفافة ينفُث دخانها فى مَهَل ، وهو يرقُبُ سحائبه يهفو بها الهواء !

كان لا يفتأُ يقول :

إن ما تسمعُهُ منى ياسيدى ليس بقصة ، كتلك الحكايات التى يتشدق بها الناس .

إنها قطعة من حياة .

حياة فتاة ، أو حياة عروس ... سَمِّها كما شئتَ ، ولكنها على اختلاف الأسماء فتاةٌ عاشت عُمْرَها عذراء .

لم تكن من أهل هذه القرية ، وإنما هى من صُقْع بعيد ، يقطع الذاهب إليه طِوَالَ الساعات على متن المَطِيَّةِ الدَّءوب .

الناس أجمعون يقولون إن مَسقَط رأسها « كفر السمان » . فيه درجتْ ، وعلى ثراه قَضَتْ ... فهو وحده دنياها جميعاً فى ذلك الكون الرحيب !

وعلى الرغم من ضآلة الكَفْر وتفاهةِ شأنه ، كان ميداناً فسيحاً يهبُها كل ما يُسْعِدها من أمانىّ ورغاب .

وما كان يغيب عنها من أرجاء هذا الكفر شىء :

طريقاه الضيقان ، تجوبُهما فى غُدُوٍّ ورواح .

دُوره المتطامنة ، تَتَسَنَّمُها كُوَماتُ الهشيم .

المرأة العجوز مُحْتَبِيَة تتهالك على قُفَّتها المهلهلة ، فيها نِثَارٌ من حَلْوَى تبيعها بالثمن الزهيد .

أما ما وراء ذلك المحيط ، فلم يكن للفتاة به عِلْم ، إلا ما تَلْقُطُه من أفواه الكبار ، وهم يخوضون فى الحديث .

كانت « رَيْحانة » وحيدةَ أبويها ، فهى الذُّخْر الذى بقى لهذين الأبوين من ذرية ذهبت بها الأقدار . فلا غَرْوَ أن تحاط منهما برعاية و إعزاز ، وأن يكفُلاَ لها حياة دَعة ورخاء .

ما رأى « ريحانةَ » أحد إلا ظَنّ ذاكراً لها .

كانت ضامرة ، خفيفة الوزن ، تكاد الرِّيحُ إن اشتدتْ أن تحملها على جناحيها كما تحمل أوراقَ الغصون .

وما أوفتْ على العاشرة حتى حجبَها أبواها فى الدار ، فلم تعد تَرِيمُ عتبتها .

وفى الخامسةَ عَشْرَةَ من عمرها ، جرى فى شأنها حديثُ الزواج .

هكذا بلغت الفتاة تلك السنَّ التى تستقبل فيها حياةَ الزوجيّة والأمومة ، ولكنها على الرغم من ذلك لبثَتْ طفلة بكل ما للطفولة من خصائص : لهجتها فى الحديث ، إشراقة وجهها بتلك البراءة والسذاجة ، خِفَّة حركتها كأنها الظبى الغَرِير .

لقد احتفظتْ فى هذه السن بطفولتها الحُلْوة ، حتى إنها لم تفرِّط فى عَرُوسها القطنية التى خاطتها لها أمها فى يوم عيد ... فأصبحت هذه العروسُ أليفاً لها ، تتصافيان وتتناجيان ، وتقنعان بدنياهما معتكفتين عن زحمة الناس .

ومن كان يرى « ريحانة » وعروس القطن ، لا يلبث أن يلمح بينهما من المَشَابِهِ ما يثير العَجَب . وكانت « رَيحانة » نفسُها تفطن لذلك ، فتفرح به ، وتزداد شغفاً بصديقتها الوفية ، و إعزازاً لها : تهدهدها ، وتتوسَّمُها ، ثم تنثنى إلى قطعة من مرآة ، فتوازن بين قَسِمات العروس القطنية وقَسِماتها ، ثم تغرق فى ضحك ذى نبرات رائقة يسرى فيها المرح البرىء .

يا عَجَبا لهذه ٱلْمَشَابِهِ !

تلك أنفُ العروس القطنية التى تماثل النبقة اليانعة ، ليست إلا صورة من أنف « ريحانة » .

وهاتان العينان النجلاوان الكحيلتان ، هما هما عيناها .

وهذان الحاجبان الغزيران ، أىُّ فرق بينهما و بين حاجبى الفتاة ؟

وكانت « ريحانة » تؤثر عروسَها بأعز مكان فى الدار ، حتى إنها حين أحضروا لها « صندوق الجَهاز » أحلَّت عروسها فيه قبل كل شىء ، وأنزلتها منه أكرم منزل .

صندوق يزدهى بألوانه ورسومه ، لم يكد يُزَفُّ إلى الدار ذاتَ يوم ، محفوفا بأغاريد الفرح والتهلل ، حتى أيقنت الفتاة أنها خُطبت ، وأنها منذُ الآنَ عروس .

قالت لها أمها فى صوت رَءوم :

فى هذا الصندوق يا « ريحانة » نضع متاع العُرْس ، فاحفظيه ، وكونى له صائنة .

فتلقت الفتاة هذه الكلمات فى خَفَر يطوى هِزَّةَ البهجة والاستبشار ، ولكنها لم تكن تدرى : ماذا يدعوها إلى الخَفَر ؟ بل ماذا يبعث فيها الابتهاج ؟ .

وتجاذبَتْها بغتةً مشاعر أنِسَتْ بها ، وإن لم تدرك لها كُنْها .

قُصارَى ما اطمأنت إليه من رأى أن كل فتاة على أُهْبَة الزواج خليقة أن تفرح ، وأن يكون لفرحتها قِناع من حياء ، فشأنها شأنُ لِداتِها سواء بسواء !

ورأت « ريحانة » صندوق الجهاز يستقبل فى اليوم بعد اليوم جديداً من الثياب والمتاع ، فلم يكن بُدٌّ من أن تنتقل عروسها القطنية من جانب إلى جانب ، ليكون لها على اختلاف الأحوال مقام كريم .

وكانت « ريحانة » تقضى طويلا من الوقت أمام الصندوق تُسَوِّى مَثابة العروس ، فتتخير لها من متاع العُرس وِساداً ، وتبسط عليها دِثارا ، وتكسوها من قشيب الثياب .

وكيف « لريحانة » أن تَضَنّ على عروسها القطنية بتلك الحفاوة ؟ أليس بينهما من الوشائج ما يجعلهما شخصاً واحداً ، لا ميزة ولا فرق ؟ أو ليست « ريحانة » هى العروس ؟

و إذا خلا المنزل من أبويها ، وضاقت بوحدتها ، عَجِلَتْ إلى الصندوق ، توقظ عروسها فتناجيها بذات نفسها ، وتُصْغِى إلى مشورتها وما تفضى به من أحاديث .

وكان أبوها كلما أضاف إلى الصندوق طارئاً من المتاع ، ألقى على العروس القطنية نظرة ، ثم التفت إلى ابنته يرنو إليها ، ويُرَبِّت كتفَها فى رقة وحنان .

وشرعت الأم تتحيَّن بعض الفترات ، لتتحدث إلى « ريحانة » فى شئون تتعلق بالزواج : حياتها فى غدها القريب ، وعيشها فى بيتها المَرْجُوّ ... ولا تفتأ تُغْدِق نصائحها إليها أن تَرْعَى زوجها ، وأن تُعْنَى بخدمته ، وأن تكون على الدوام حريصة على كسب رضاه .

فأما « ريحانة » فإنها كانت تنصت لهذه النصائح أجمل إنصات ، ولا تَنْبِس بحرف .

وما تكاد الأم تَفْرُغُ من حديثها ، وتنطلق لشأنها ، حتى تُهْرَعَ « ريحانة » إلى عروسها القطنية ، تحاورها وتبادلها الرأى فيما غَمَضَ عليها من تلك النصائح .

وقد يبدو « لريحانة » أن تتلفت يَمنة ويَسرة ، حتى إذا استيقنتْ أن المكان خال لا رقيبَ ولا سميع ، أسرَّتْ إلى عروسها سؤالها فى صوت خافض عن الزوج المنتظَر .

وسرعان ما تنطلق العروس القطنية ، مطنبةً فى وصف ذلك الزوج ، مُشِيدَة بخلاله وشمائله ، متغنية بوسامته ورجولته ، و « ريحانة » مصغية إلى عروسها ، مطيلة فى إصغائها ، دائبٌ قلبُها فى خفوق ، سَكْرَى بنشوة الحديث .

وأقبلت أمها عليها يوماً ، ووجهها يتطلق ، وهمستْ فى أُذن ابنتها : سيحضر اليوم زائراً أباك .

وفطنت « ريحانة » من فورها إلى الزائر الذى تَعنيه أمها .

ومن يكون غيره ؟ إنه رجلها الأوحد ، هو الذى بعثه الله لها هادياً تجد فى كَنَفه الأمن واليُمْن . . . هو الذى يجدر بها أن تهبه قلبها جميعاً . . . تحبه حبًّا عميقاً ، حبًّا جديداً فريداً ، لا كالحبِّ الذى تضمره لأبويها .

وكانت الفتاة يتناهَى إلى سمعها أن زوجها لن يَرى لها وجهاً قبل ليلة الزِّفاف ، فأما فى هذه الفترة ، فترة الخِطْبَة ، فلا مناصَ من أن يقوم بينه وبينها جدار غليظ ، وحجاب كثيف .

ولكن « ريحانة » على الرغم من ذلك كله ، أَلِفت نفسها مسوقة فى هذا اليوم المتميّز من أيام حياتها إلى أن ترتدىَ جديداً من الملبس ، وتتخذ شيئاً من الزينة والعِطْر .

وعجبتْ من نفسها : فِيمَ هذه العناية التى تبذلها ، على حين أنه لن يكون بينها وبين زوجها فى هذا اليوم لقاء ؟ .

ولبثت تتعجَّلُ الوقت وتضيق بالانتظار ، وتبثُّ نظراتها من الطاق ، تتبين دورةَ الشمس من تَقَلُّصِ الظلال على الحوائط والجدران .

وأخيراً عرفتْ أن الضيف المنتظَر قَدِمَ الدار فى رُفقة من ذوى قرباه ، فاستحثت خطاها ، هاربة إلى السطح ، وانزوت فى غرفة ضيقة ، لا رفيق لها إلا عروسها القطنية .

وظلت « ريحانة » فى الغرفة ، مهتاجة الأوصال ، مبهورة الأنفاس . وفيما هى تُعانى اضطرابها ، كانت تختلس النظرَ إلى عروسها القطنية ، فتراها تبتسم لها فى دهاء ومكر ، كأنما تشير إليها أنها تعلم مَبْعَثَ حفاوتها ، وسرّ اضطرابها ، فكانت « ريحانة » تضيق بها ، وتُزِيغُ نظرها عنها .

ولبثتْ كذلك فترة ، ثم أحستْ طارقاً من حركة وجلبة ، فعلمت أن زورة الضيوف قد انقضت ، وأنهم عائدون أدراجهم . . . فشعرتْ بقدميها تدنوان من شِقٍّ فى حائط الغرفة يشرف على الطريق ، وصافح سمعَها صريرُ الباب الكبير ، وإذا عينها ترْصُد الزُّوَّار فى مُنْصَرَفهم من الدار .

وخُيِّلَ إليها أن بصرها قد أُوتِيَ من الحِدّة أضعاف ما كان له ، فأصبح يستطيع أن يميِّز الأشباح فى وضوح وجلاء .

وما أسرع أن تعرفتْ فتاها !

لقد ميَّزته من بين الزوار جميعاً ، منذ النظرة الأولى . . . ومحال أن

يكون نظرها قد خدعها ، فإن كل سِمَةٍ من سِمَاتِ هذا الشاب تنطق بأنه الزوج لا مَحَالة .

قامة باسقة ، تتجلى فيها الفتوة والرجولة ، ومِشْيَة مزهوّة يستبين فيها النشاطُ والمرح ، وكِساء أنيق يتلألأ بلونه الزاهر .

أما مُحَيَّاه ، بملامحه وقسماته ، فلم يَبِنْ لها إلا لَمْحا .

ومهما يكن من أمر ، فإنه فتى وسيم ، بل إنه دُرَّة الفتيان ، وزينة الشباب !

وأَرْعَتْ الجمعَ نظرها ، حتى أخفتْه مَعَاطِفُ الطريق .

وأَنْحَتْ « ريحانة » على عروسها القطنية تضمّها فى شغف واهتياج ، حتى أحسّت العروس أنها تختنق .

ومنذ هذا اليوم خَفَقَ قلب « ريحانة » لزوج المستقبل . فكان شبح هذا الفتى المَشِيق الطروب بكسائه الزاهى يتراءى لها حيناً فى اليقظة ، وحينا فى جنة الأحلام .

وانكشف لها أن حياتها الماضية لم تكن إلا أياماً فارغة تافهة ، وأنها قد أخذت تَتَمَلى أياما عامرة بالبهجة والإيناس ، مشرقة بالأضواء السواطع تَشيع فيها مُرْقصات الأنغام .

وتواترت زورات الزوج ، فأذكتْ حبَّ « ريحانة » وملأت قلبها من وَجْد وحنين .

ولم تزد صلتها بفتاها على تلك النظرات المُرْسَلات من شِقِّ الحائط فى غرفة السطح ، تُشَيِّع بها شَبَحَ القامةِ الفارعة !

وما زال صندوق الجَهاز يتلقى الجديد ، حتى أوشك أن يكتمل ، فتواصل حديث الأسرة فى عقد الزواج : متى يومُه ؟ وعلى أى نحو يكون ؟

ولكن لأمرما فوجئتْ « ريحانة » بانقطاع الحديث فى شأن الزواج ، واقترن ذلك بأن الزوج لم يعد يُهِلُّ على البيت كما كان يفعل . . .

وشاع جوّ من الغموض لم يظهر للفتاة سره ، فأظلت نفسَها حيرةٌ واكتئاب ، وفزِعَتْ إلى عروسها القطنية تلتمس منها العون فيما حَزَبَها من أمر ، بَيْدَ أن عروس القطن كانت لا تزيد على أن ترنوَ إليها بعينها الكحيلة وحاجبها الغزير ، فى حسرة واغتمام . . . وكانت « ريحانة » كأنما تلمح فى عين عروسها أنداءً من دموع !

وكلما تفقدت الفتاة صندوق الجَهاز ، وجدته دائماً يرتقب شيئاً ينقصه . . . شيئاً ، واحداً ، ذلك هو حُلَّةُ الزِّفاف ، ولكن تلك الحلة غابت وطال مغيبُها !

وريعَتْ « ريحانة » مما تراه من تجهُّمِ أبيها ، وتحسُّرِ أمها .

واعتزمت أن تقتحم السر المكتوم ، فطفِقت تراقب حركات والديها ، وتتجسس عليهما ، وتسترق السمع إليهما ، وما كان يَعْزُب عنها أنها بذلك تجانب ما يليق ، ولكن . . . أليس الذى يغشى الدار من جهامة وخفاءٍ عذاباً لا يطاق ؟ !

واستطاعت بعد لأْيٍ أن تصل إلى أشياء ظَنَّتْها مفتاحَ السر أولَ وَهْلة ، بيد أن هذه الأشياء زادتها حيرة إلى حيرة .

إن أباها يُنْحِي باللائمة على الزوج ، لأنه شَدَّما اشتبك فى خصومة ونزاع ، واشترك فى مشاجرة وعراك ... حتى صار اسمه مُضغةَ الأفواه !

وساءلت الفتاةُ نفسها :

ماذا يَعِيب الرجل فى أن يخاصم ويغالب ، حتى يُعْقَد له الظفر ؟ أليس ذلك برهانا على فتوته ورجولته ؟ إن ذلك لجدير أن يُعَدَّ فى محامده . . . أيرغب أبوها فى رجل كالفتاة فى خِدْرها ، لا تملك إلا الطَّوْع والإذعان ؟

إن أباها لَيَنْعَى على الزوج ارتيادَه محافل الموالد ، وغِشْيَانَه سوامر الغِناء وقيادتَه للمواكب والجموع ، يقوم زعيماً عليها ، ويتقدمها راقصاً يتلاعب بعصاه ...

ومضت الفتاة تسائل نفسها :

أيعاب الرجل بأنه ممراح طروب ، يقبل على مباهج الحياة ، ويستوفى حظه من متع الشباب ؟ أيريد أبوها أن يكون الزوج الفَتِى على غِراره هو ، وَقُورا فى مجلسه ، قعيدَ بيته ، يملأ الجو حولَه من تحفظ وتزمُّت وعُبُوس ؟

لماذا لا يرقص ؟ لقد طالما سمعتْ أن كثيراً من الأزواج استخفَّهم المَرَح فى الأعراس ، فرقصوا طرباً أمام هودج العروس فى موكب الزِّفاف .

إنها لتتمثل ذلك الفَتِى المَشِيقَ بكُسْوته الزاهية يتقدم هَوْدَجها مطوِّحا

بعصاه ذات اليمين وذات الشمال ، وقد أخذَ منه الاعتزاز بجمال عروسه وفتنتها كلَّ مبلغ ! ... وإنها لتتمثله كذلك وقد رأى الجَمْعَ يمدُّون أعينهم إلى هودجها ، فأشرع إليهم عصاه يردُّ عن عروسه خائنةَ النظرات . . .

ما أكثرَ ما يتجنَّى أبوها على الفتى الحميدِ الخصال !

ولبث الصندوق ينتظر حُلة الزِّفاف ، ولكن الحلة صَدَّت عنه ، وطال صدودها مديدا من الأيام .

وفى هَدْأَةٍ من ليل ، تفزعت « ريحانة » من نومها ، وصوتُ أبيها يُدَوِّى فى الدار ، ويقول :

طالما نصحتُ له ، مُحاسِناً مرة ، ومُغْلِظاً له فى القول مرة أخرى ، فلم تُجْدِ معه الحُسْنَى وغيرُ الحُسْنى . . . وها هو ذا اليوم يحصُد ما غرستْ يداه . . . لقد ذهبَ إلى غير مَرْجِع !

فارتجفت « ريحانة » مما تسمع ، وتكمَّشتْ فى غطائها ، وبقيتْ ساهدةً ليلَها كله ، يطوف حديثُ أبيها حولها كأنه خُفَّاش مخيف .

وفى الغداةِ رأتْ أمها تقصِد إلى صندوق الجَهاز ، فتُحكم إغلاقه بالمفتاح ، وتحمله إلى مكان فى الدار بعيد .

وتلَتْ ذلك أيام لم تسمع فيها « ريحانة » من والديها أىَّ نبأ يتعلق بالزوج ، فلا شىء إلا الصمت والجهامة والركود .

ولم يبرح سَمْعَ الفتاة قولُ أبيها : لقد ذهب إلى غير مَرْجِع !

ماذا يريد أبوها بما يقول ؟ما معنى أنه لن يرجع ؟ إن الموتى هم الذين لا يرجعون . . . أيكون قد مات ؟

لقد تلقَّط سمعُها نِثَاراً من أحاديث فى هذا الصَّدَد ، ولقد قيل فيما قيل : إنه سِيقَ إلى غَيَابَةِ السجن فى جنايةٍ ذاتِ خطر .

حَمَى الله الفتَى المِقْدام ! . . . فيم يُسْجَن ؟ هيهات أن يكون قد أجرم أو جَنَى . . . إنه لبطل كريم ، تكاثر حُسَّاده ، وتوافر منافسوه ، ولا بد أنهم نَصَبوا له حبائلَ كيد ، وائتمروا به ليوقعوه فى محظور . . . يالهم من أخِسَّاء !... مهما يفعلوا فإنهم لن يُدِيرُوها عنه ، ولن يظفَروا بكرهها له !

وخلتْ مرةً إلى عروسها القطنية ، وأقسمتْ بين يديها أغلظَ القسم إنها لن تَخْفِرَ عهده ، ولن تخونَ ودَّه ، ما بقى فيها ذَمَاء من حياة !

لتكونَنَّ له وفية نقية ، فهو فتاها الأولُ والأخير .

وفُجِعَتْ « ريحانة » بعد قليل فى أبيها ، ولم تلبث أن لَحِقتْ به أمها . وغدت الفتاة وحيدةَ بيتها ، لا تجد إلا عروسها القطنية من أنيس .

وانتقلت إلى الدار خالة للفتاة شاركتْها فى حياتها ، وإن لم تَنْفِ عن نفسها حياة الوحشة وفراغَ الفؤاد . . .

وتعاقب الخُطَّاب على بيت « ريحانة » يطلبونها . . . ولكنها ردَّتهم جميعاً !

فإذا سألتْها خالتُها : ما بالها تَعْتَلُّ على كل خاطب ؟

أجابتها الفتاة فى سذاجة وسلامة نيـة ، وعيناها موصولتان بأديم الأرض :

لقد جَرَّبْتُ بختى فى الزواج يا خالة !... والبخت الأول لا يُعَوَّض ...

فإن ألحتْ خالتها عليها ، تحاول إقناعها بقولها :

أتظلين عانِساً سائر عمرِك ؟

أجابتها الفتاة فى ثبات ويقين :

لستُ عانساً يا خالة . . . أنا مخطوبة !

— مخطوبة ؟ . . . لقد ذهب الذى تَعْنِين ، وانقضَى أمرُه .

— إما أن يكون حَيًّا ، وإما أن يكون قد طوته المَنون . .. فإن كان حيا فهو عائد إلىَّ ، وإن كان ميتا فأنا صائرة إليه . . . سنلتقى يوما ، ونتزوج حتما ، فى هذه الدنيا أو فى العالم الآخر !

وصبرتْ « ريحانة » على تلك الحال عاما وبعضَ عام . . . تنتظر عودة الحبيب ، وقد شفَّها الجَوَى ، وبَرَّح بها الانتظار ، حتى قصفتْ يدُ المنون غصن شبابها الذاوى .

. . . . . .

وما يبلُغُ البستانىُّ الشيخ هذا المبلَغَ من رواية قصته ، حتى يَغْمِزَ عُلْبَةَ دخانه ، وما هى إلا أن يُسَوِّىَ لفافة يشعلها فى تمهل ، وهو يقول :

هكذا كانت نهاية تلك العذراء !

وبهذه الجملة كان دائما يختم قصته .

... ...

واتفق لى فى آخر لقاء له أن امتدَّ بنا الحديث ، فقلتُ لشيخ البستان بعد فترة صمت :

ما كان أشقَى حياةَ هذه الفتاة ! . . لقد خَطَّتْ بيدها طريق تعاستها ، على حين أنه كان فى مُكْنَتِها أن تَنْعَمَ بشبابها فى ظل زوج جديد !

فرفع الرجل بصره إلىّ ، وقال :

أترى أنها كانت حقًّا شقية تاعسة ؟

— وهل تكون حياة الوحدة والوحشة والانتظار إلا تعساً وشقاء ؟ !

فأرسل الرجل بصرَه فى الأفق ، وهو يقول :

ربما كانت حياة الوحدة والوحشة والانتظار حياة حافلة بأطايب النُّعْمَى ... إن وفاء النفس وصفاء السريرة يُسبغان على الرُّوح طمأنينة وسكينة هما لُبابُ السعادة وجوهرها الخالص !

فنظرتُ إليه وقتاً دون أن أنْبِس ، وجعلت أستعيد كلماتِه الساذَجة الغريبة ، وأدير الرأى فيها .

أفى الإمكان حقًّا أن نكون بأحزاننا وهمومنا سعداء ، ما دام ثَمَّةَ شعور بالوفاء والإخلاص يملأ جوانب النفس ؟

وأزِفَ وقت مغادرتى لمُستَشْرَفِ الدار ، ولكنى لم أجد مَحِيداً عن مواصلة الجلوس ، ومتابعة الحديث .

ووجدتُنِى أقول لصديقى البستانىّ الشيخ ، وكأنى أتحدث إلى نفسى :

والزوج ؟ ... ألم تُحِطْ علماً بشأنِه ؟

فلاحت على وجهه بسمة وادعة ، وقال هادئ الصوت :

دعنا من شأن هذا الزوج ... عِلْمُه عند عَلَّام الغيوب !

— أكبر الظن أنه كان شَرِيداً عِرْبيداً ...

فأخذ الرجل يقلِّب عُلبة دُخانه ، ثم قال :

كان كذلك فيما يشاع ويُرْوَى !

— خيراً فعلَتْ الأقدار ، إذ فرقت بين هذين الإنسانين قبل أن يتزوجا ...

— لماذا ؟

— لو تَمَّ زواجهما ، لبَئِسَت تلك الفتاة الطيّبة النقيّة بين براثِنِ ذلك الشِرِّير الأثيم !

— ربما كان ذلك ... وربما كان للأمر وجه غير هذا الوجه !

ثم تابع تقليبه لعُلبة دخانه ، وهو يقول :

لم يكن محالا أن تصبح هذه الفتاة أسعدَ الزوجات .

— فى صحبة هذا الشِرِّير ؟

— نعم يا سيدى . . . فى صحبة هذا الشِّرِّير ! . . . إن عينها الطاهرة لم تكن تَرى فيه إلا المَثَلَ الأعلى للرجولة والبطولة والإقدام . . . كانت عينُ هذه الفتاة من البراءة بحيث لا تُبْصِر إلا الجانبَ الطيبَ من مشاهد الحياة !

— ولكن أليس من الحمق أن تَظَلَّ هذه العين البريئة غافلة عن الحقائق ، مخدوعة بالظواهر ، راضية بهذه الغفلة والخداع ؟ !

فابتسم الشيخُ ابتسامة يتجلَّى فيها الإشفاق . . .

وقال :

أليس من نعم الحياة أن نَظل شيئاً ما غافلين عن الحقائق ، مخدوعين بالظواهر ؟ . . . وعلى أية حال ، من ذا الذى أُوتِىَ القدرة على أن يحكم حكما حاسماً يميز فيه بين الحقائق والأوهام ؟ دونك مثلا . . . كل الظواهر والقرائن تؤيد أن هذا الرجل كان جُرثومة شرّ ، وأخا سَوْء .

— أَأَنْتَ فى ذلك تشك ؟

— العلم عند علام الغيوب . . . نحن دائماً نحكم بحسب الظاهر . إن عيوننا حَسْرَى ، وإنها فى الغالب أَعْيَى من أن تستجلىَ بواطن الأمور ودخائل الأحداث . . . قد يكون هذا الرجل على سوئه وشره مَطْوِىَّ الضلوع على قلبٍ أنقى نَقَاء من قلب طفل برىء . . . أليس ذلك بجائز ؟

فهمهمتُ :

كلُّ شيء جائز !

— فإذا كان للرجل هـذا القلب ، فهل يَعْجِز عن أن يُسعد زوجه ، ويكفل لها نَعْماء الحياة ؟! ... أكان من المتعذر أن يتأثر هذا الرجل بِطِيبة فتاته وكرم طبعها ، فإذا هو على يديها تائبٌ من ذنبه ، ناهجٌ طريقَ خير وهدى ؟!

كان شيخ البستان يخوض فى هذا الحديث ، مسترسلا يتوقَّدُ حَمِيَّة وحماسة . .

و بغتةً رأيتُه قد توقف ، كأنما يستدرك على نفسه ما فَرَطَ من قول .

ثم انحنَى على عُلبته يعبث بالتبغ فى صمت ، وأنا أحدِّق فى وجهه أتفحصه ، وما هى إلا أن ألفيتُه قد نهض يَلُمُّ شَعَثَه ، وحيَّانى فى أدب جَمّ ، وأخذ سَمْتَه بين ألفاف الحديقة ، فلم أردَّ عنه بصرى ، حتى أطبقتْ عليه أفنان الشجر ، تُعِينُها أستار الظلام .

. . . . . .

ومرتْ بضعةُ أشهر بعد هذا اللقاء ، قضيتُها مستشفِياً فى بعض المدائن ، خارجَ « مصر » .

وما إن عدتُ حتى انتَهَى إلى سمعى أن البستانىَّ الشيخَ قد وافاه حَيْنُه منذ قليل ، فمضَّنى أسف عليه ، وقصدتُ الضيعةَ أُمْضِى بها فترة ، فكان أولَ ما عُنِيتُ به أن يَمَّمْتُ قبرَه .

وفى فواتح المساء ، خرجتُ إلى مُسْتَشرَفِ الدار وحدى ، وبسطتُ الحصير أجلس عليه ، وأنا أرنو إلى تلك الحديقة المُوحِشة .

وبقيتُ وقتاً فى صمت ، أعرض جلساتى إلى شيخ الحديقة ، فما لبثتُ أن آنستُ صوتاً لم يكن غريباً عنى ، صوتاً واضح النبرات ، على الرغم من بُعْدِ مَا أتاهُ . فأرهفتُ السمع فى تلك الخلوة المظلمة ، وإذا الصوتُ يَرْوِى لى قصة « ريحانة » كما هى بأحداثها وتفاصيلها ومراحلها .

شَدَّ مَا كان حبيباً إلىَّ أن أصغى ، وأن أنهَلَ الكلمات نهلا .

ولما فرغ الهاتف من قصته ، ألفيتُنى أهمهم ، وأنا أرنو إلى الأفق ، وقد تكاثفت ظلماته :

والزوجُ ؟ ... ألا عِلْمَ لكَ به ؟ !

فسمعتُ الهاتفَ كأنما يجيب :

أما بَرِحتَ طلَّاعاً إلى تعرُّفِ شأنه ؟

ورأيتُنِى أنهض من فورى ، وكأن يداً مستورة تأخذ بيدى ، تَهْدِينى الطريق ، فجعلت أجوسُ خلال الأشجار ، تُحْدِقُ بى أطباقُ الحُلْكةِ والصمت والوحشة ، حتى أفضى بى المسير إلى كوخ فقيدنا البستانى .

ودفعتُ الباب فى رِفق ، وأضأتُ شمعةً أصبتُها هنالك ، فتبينتُ متاع الرجل كما تركه ، لم تمسَسْه يدٌ بعدَه . ووقفت أردِّد النظر أمامى ، ثم ألفيتُنى أقلب وأنقِّب ، حتى عَلِقَتْ أناملى بشىء ، فأخرجته أذِنيه من

ذُبَالةِ الشمعة ، فإذا هو : « عروس من قطن » !

وجَمَدَتْ قدماى لحظة ، وأنا أُحَدِّق فى ذلك الأثر العجيب :

أنف كالنبقة اليانعة .

عينان نجلاوان كحيلتان .

حاجبان غزيران .

وأحسستُ هَبَّةً من نسيم تقتحم الكوخ ، كأنها أنفاس تَتَصَعَّد . فما هى إلا أن انطفأَتْ الشمعة ، وأخذتْنِى رَجْفة ، وخُيِّل إلىّ أنى أرى طيفَ وجهٍ يهيمُ فى الكوخ . . .

والتقت عيناى بوميض عينيه ، فسرعان ما وجدتُنِى أوسِّدُ العروسَ القطنية مكانَها الذى أخرجتُها منه ، وأتسلل مبهورَ الأنفاس ، ضارباً فى الظلام !...

هذه الحصاة

فى حياتك أحداثٌ قد تَعُدُّها تافهة لا بال لها ، ولكنك لا تلبث أن تجدَ لها من النتائج ما عساه يُغيِّرُ منهجَك فى هذه الحياة ...

ربما صدرتْ عنكَ نَأْمَةٌ على غير قَصْد ، أو بدرتْ منك كلمة هى عَفْوُ الخاطر ، أو انحرفتْ بك القَدَمُ خطوة دون تدبير ، فإذا أنتَ قد ألفيتَ نفسَك تشقُّ طريقاً غيرَ طريقِك المرسوم ، وإذا البَوْنُ شاسع جِدٌّ شاسع بين ماضيك المَطْوِىِّ ، وحاضِرِكَ المرموق .

إنْ هى إلاَّ « حَصَاة » صغيرة تعترض السائرَ فى مسلكه ، فلا يتمالك أن يَعْثُرَ ، ولا ينهض بعد ذلك إلا وقد احتواه أفق جديد .

ليس حديثى هذا إليك ضرباً من لَغْوِ الحديث ، وإنما هو زُبْدَةُ ما خَلَصَ لى من أحداث حياتى التى كُتِبَتْ علىّ .

لم يكن مِحْوَرُ قصتى إلا « حصاة » عَثَرَتْ بها قدمى ، فكان منها كلُّ ما كان !

وأنتَ أَلِفْتَ من نُصْحِ الناس أن يُحَذِّروك من جِسام الجنادل والصخور

أما أنا فما أردتُ بما أبثُّك إيَّاه من حديثى أن أحذِّرَك من صخرة أو جندل ، وإنما أردتُ تحذيرَك من هذه الحَصَيَات الضئال ، حين تتناثرُ فى مواطئِ الأقدام .

ولتكنْ على ثقة بأنى لن أخفىَ عنك سرًّا ولن أموِّه عليك شيئاً . فهذه قصتى أصارحُك بها ، لا أبالغ ولا أتزيَّد ، وقُصارَى ما أبتغيه منها أن تنتفعَ بتلك التجربة التى مرَّتْ بى ، فأكونَ قد أسديتُ إليكَ جميلا .

إن المتشرفَ بخطابك فى هذه الساعة رجل مُعْدِم ، حَطَمَتْه الأيام ، وألحتْ عليه الشيخوخة ، و بلغ أرذلَ العمر ، وهو لا يجدُ الآن مُتَنَفَّساً لعيشه فى غير لفائف الدخان الرخيص، يبيعُها كَسْباً للقوت وطلباً للكَفَاف

لقد أسلمنى الزمن إلى هذه الحِقْبة من حياتى ، تُمِضُّنِي فيها الخَصاصة ، وتُضْنِينى الوَحْدة . وما كان عزيزاً علىّ أن أُصبحَ رجلا من ذوى المناصب العالية ، وأرباب الاسَر الرفيعة ، وأولئك أقرانى فى النَّشْأَة ، قد أمْسَوْا زينةَ الحياة ، وزهرةَ المجتمع ، وظَفِروا من الدنيا بأطيبَ ما فيها من نعيم .

ولكن هى « الحصاة » . . .

زَلَّتْ بها قدمى ، فهَوَتْ بى إلى الحَضِيض !

بنفسِكَ أن تسألَنى :

ما هى هذه الحصاة ؟

وكأنى بك تتعجَّلُنى الجواب .

لكى تعرفَ حصاتى هذه ، يجب أن تضعَ على عينيك المنظارَ المُكبِّر ، فسينكشفُ لك أمرها .

هى إنسانة . . . إنسانة وافرة الحظ من الوَسامة والحسْن ، لا وصفَ لها عندى إلا أنها عجينةٌ من لؤلؤ سُقِيَتْ بذَوْبٍ من الماس . ولكن أىّ قيمة لهذا الوصف ؟ أليست هى فى أول الأمر وآخره امرأةً من بنات « حوّاء » ، جُبِلَتْ فى حقيقتها من ماء وطين ، إذا أنتَ حَلَلتَها ، ورجعتَ بها إلى عناصرِها الأولى ، ألفيتَ قيمتَها لا تزيدُ على بضعة قروش ؟ !

لا تَضَعِ المنظارَ المكبِّرَ جانباً ، بل امْضِ فى التكشف والتعرف جاهداً .

سترى هذه الإنسانة قد اعتلت مِنَصَّةً فى مَلْهًى كان قائماً منذ عشرات الأعوام ، وإنها لتبدُو فى زِىِّ المَلاَّحين رُوَّادِ البحار : كُسْوَةٌ قصيرة تلتصق بالجسد ، وَتَنُمُّ عن مفاتنه . وإنها لتتجلَّى فى بُهْرَةِ المِنَصَّةِ لا تزيد على أن تُنَقِّلَ قدمَها فى دائرة صغيرة ، منشِدةً إحدى الأغانى بصوت ليس بالرخيم .

لم تكن ترقص ، ولم تكن تُغَنِّى ... حَسْبُها ما كانت تبديه من إيماء ، وما تلفِظُه من نَغَم ، فإذا بها تتحوَّل إلى اختلاجة راعدة ، إلى رِعْشَة متمرِّدَة ، لا تلبث أن تُثيرَ فى نفوس النَّظَّارة رُوحَ العربدة والهَوَس .

تَنَحَّ بمنظارك المكبِّر عن هذه الناحية ، وسَدِّدْه إلى ذلك الركن الأيسر

من المسرَح فستلمح من بين النَّظَّارة هنالك فتىً تستطيعُ أن تُجْمِلَ وصفه في كلمتين . . . شابٌ تتوهج في إهابِه كلُّ معاني الشباب ، شاب يختصر لك في جسده وفي رُوحه كلَّ خصائص تلك السنِّ الرائعة ، سِنَّ الثامنةَ عشرة !

ولن يفوتَك أن ترى ما تحتويه يمينُه من رِزْمَةٍ كتب مدرسية !

إنه في جلسته المسحورة يتتبع تلك الإيماءات والخَلَجات بعين طفل ريفيّ يتفرّجُ في « صندوق الدنيا » أولَ مرة ! ... فإن ما يشهدُه الفتى في هذه اللحظة ليس في الواقع إلا « صندوقَ دنياه » الجديدة ، وما أحقّ تلك « الحصاة » الآدمية ذاتَ الجسم الفالوذجِيّ الرجراج بأن تسميَها « دنيا » جديدة لذلك الفتى ، قد انزاح عنها الستار ، على غير انتظار !

إذا أقسم لك هذا الفتى بأنه لم يطأ هذا المسرحَ من قبل ، ولم يعرفْ له اسما حتى ساعتِه تلك ، فصَدِّقْه . . .

وإذا أنبأكَ بأنه قبل تعريجه على هذا المسرح بلحظات ، كان خاليَ الذهن من أمره كلَّ خَلاء ، فصدِّقْه أيضاً . . .

ليس لتكذيبه من مُسَوِّغ . فقد كان الفتى أبيضَ الصفحة ، صريحَ اللهجة ، آيةً في الطَّوْع ، صبورَ النفس ، مثابراً على الدرس .

كان يحيا في كنَف والدٍ أشبهَ ما يكون بقائد شديد المِراس ، قويّ الشَّكِيمة ، جهْمِ القسِمات . منزلُه أقربُ إلى أن يكون ثُكْنَةً مُوحِشة

من ثُكنات الجند. وما حياةُ هذا الفتى فى ظل ذلك النظام إلا «مواعيد»... مواعيدُ دقيقة ليس إلى الإخلال بها من سبيل . وإن وطأةَ هذه المواعيد لتجعلُ الفتى يتمثَّلُ نفسَه فى جوف ساعةٍ ضَخمةٍ يقوم منها مقامَ «الرقَّاص» عمله فيها هو تلك الحركة الدَّءوب من جيئة وذهوب ، وَفْقاً لخفقات الساعة الصارمة ، لا وَنَاء ولا انحراف .

بَيْدَ أنه مع هذا كله لم يكن يَجِدُ فى نفسه مَسَاغا للضجر ، فهو مستسلم لهذه الحياة الراتبة المستَتِبَّةِ ، يَسُودُها ذلك النظام المحكم الدقيق . .

أليس النظام ، فيما تَعَلَّمَ الفتى ، عمادَ الحياة ؟

ما كان للفتى من بُغْيَةٍ إلا أن يُنجِز دراسته ، ليأخذَ جَوَازَهُ إلى مَنْصِب كريم . فذلك ما كان يحدثه به أبوه ، لا يَمَلُّ فيه تَكرارَ الحديث .

بينه وبين إتمام الدرس عامان اثنان ، يقضيهما بما هو مألوفٌ من اجتهاده واستذكاره ، ثم يظفرَ آخرَ المَطَافِ بتلك الصحيفة المبرقَشَة الزاهية ، مَهْوَى الأفئدة ، ومَطْمَح الأنظار . . .

ولهذا الفوزِ ما بعدَه !

أليس هو موعوداً من أبيه بأنه ما إن ينالُ إجازتَه الدراسيّة ، حتى يحققَ له تلك الأمنية الغالية ، إذ يُهْدِى إليه ابنة عمه الحسناء عَرُوساً له ؟

إنها فتاة وسيمةُ الطَّلْعة ، يَزِينُها تحفظ وخجل ، لا تقعُ عليها عين

الفتى إلا مرةً فى كل جمعة ، وفى هذه الزورة الأسبوعية تظفرَ الأسرة بمتعتها التى لا متعةَ لها سواها فى سائر حياتها . . . الأبُ يقيم فى هذا اليوم مَأْدُبةَ غَداء تقوم على أربعة لا يزيدون : الأب وأخته وابنه والعروس ، وهؤلاء الأربعة يجمعهم طابَعٌ واحد من التزمُّت والتوقُّر والاحتشام .

وعلى الرغم من ذلك ، فإن الفتى كان يرى فى هذه المأدُبَةِ المتواضعة « حفلةَ تَرْفيهٍ » شائقةً تنعَم بها فى كل أسبوع تلك الثُّكْنَةُ الموحِشة بنظامها العسكرىّ .

وكان الفتى كلما تطلع إلى ابنة عمه فى مكانها من المائدة قُبالتَه ، أحسّ كأن الفتاة خلفَ أسوار وقضبان لا يستطيع الدنُوَّ منها . . . أو كأنها « مِنْطَقَةُ حرام » فى عُرْفِ قائد الأسرة العتيد . . .

ما خَلاَ الفتى إلى عَرُوسهِ قطُّ ، وما حاول أن يخالسَها الكلام يوما من الأيام ، ولكنه مع ذلك كان يَلْقَى عَرُوسَ غده فيطارحها الحديث ، وَيَنْعَمَ فى ظلها بأُوَيقات صفاء ومراح ، يستبيحُ فيها ما لا يستطيع البَوْحَ به ، حتى فى مناجاتِه لنفسه . . . كان ذلك يجرى فى أحلام اليقظة ، وفى رُؤَى المنام ! . . . فإذا ما صحا من نَشْوَته ، أو انتبه من غَفْوَته ، استنكر صنيعَه ، وثار عليه ضميره يؤنِّبه ، فلا يلبث أن يعاهدَ نفسَه على ألاَّ يعودَ إلى تلك المعابَثات الصِّبيانية البغيضة .

وما له يَتعَجَّلُ المتعةَ وزينةَ الحياة ، وإن قصورَ الأمانىِّ لتتسامَقُ

أمامَه فى أفق رحيب . فها هوذا مُجِدّ فى مسلكه المدرسىّ ، موفَّقٌ دَائماً فى الاِنتقالِ من مرحلة إلى مرحلة ، وكلُّ شىء يجرى فى عِنانه ، باعثاً على الطُّمَأنينة ، داعياً إلى الثقة بمستقبل زاهر باهر .

ظل الفتى ماضياً فى طريقه الوردىّ الممهود ، حتى هذه الأُمْسِيَّةِ التى عَثَرَتْ فيها قَدَمُه بتلك « الحصاة » . . .

وأنت إن رفعتَ النظارَ المكبِّر عن عينيك ، وتخطيت صفوف المسرح لتدنوَ من الفتى فى مجلسه ، وتسأله متلطفاً به :

ماذا أتَى بِكَ إلى هذه المَثَابَة ؟

أجابكَ فى غير تكلف :

هى مصادفة محضة ، لا يَدَ لى فيها بتدبير !

وإن الفتى ليقصُّ عليك ، كيف انساقتْ به قدماه ، إلى مكان « الحصاة » . . .

بارح الفتى دارَ قرين له ، عشيةَ يوم ، حيث كان يستذكر معه بعضَ دروسه ، وذلك قُبَيْلَ الاِمتحان . بارح الدار مختنقاً يتلمس الهواء ، فقد أَضْنَتْه المكابدةُ والمجاهدة فى المذاكرة والتدَارُسِ ، إذ احتوتْه هو وقرينُه حجرة متضايقة ، ضوؤها شحيح . فما كاد يُدْبِر عن الباب حتى ألفى يده تَعْجَل إلى رباط رقبته فتحلُّ عُقْدَته ، وكان وهو يفعل ذلك يُخَيَّلُ إليه أنه يستخلص رقبتَه من طَوْق حديدىّ يضغطها ومضى يتلفَّت حواليه منهومَ

الأنفاس والنظرات ، يَعُبُّ الهواء ، ويشتفُّ الضياء !

جَدَّ الفتى فى سيره ، يطلبُ منزله ، سالكاً ذلك الطريقَ الذى أَلِفَ سلوكَه من قبل ، ومَرَّ فى خُطاه بأحدِ الشوارع التى كان يمرّ بها ، دون أن يَأْبَه لها . إنه شارع كسائر ما يتفرع من الشوارع فى الطريق العام ، لا يمتاز بشىء إلا ما يسطَع فيه على مَرْمَى النظر من أضواء ألأَقة تتلوّن ألواناً .

وألفى الفتى قدميه تمشيان وئيداً ، ونظراته تنساب نحو ذلك النور البهيج تِبَاعاً . . وفى خطفة البرق عَنَّ لخاطره أن يخترقَ هذا الشارع ، تَأَنُّساً بأضوائه ، وما عليه فى ذلك من بأس ، فإنه بالغٌ دارَه ، دون أن تبعُد عليه الشُّقَّة ، ويطول السير .

وعَدَل إلى الشارع يجتازه ، وإذا هو بعد خطوات أمام تلك الأضواء المبرقَشة التى بَهَرَتْ عينه . . . وإذا هى أضواء مسرح ، أو بالأحرى دار لم يدخلها ، ولن يُتَاحَ له دخولها . إنها أحد تلك المواطن التى يضعُها أبوه فى « القائمة السوداء » ، ولا يذكرها إلا مقرونة بالتحقير والازدراء .

لا مَأْخَذَ عليه فى لمحة خاطفة يلقيها على هذه الدار ، ثم يَمْضى لِطِيَّتِهِ لم يَعْلَقْ بأذياله ضَيْر .

وسُرعانَ ما اشتبكت أنظاره بطائفة من الصور والرسوم تتناثر على الجُدْران ، وأخذه العجَب من تلك المناظر التى يبدو فيها صِنف من الناس

غريبُ الأزياء والأوضاع ، فقام فى ذهنه أولَ وهلة أنه يشهد صوراً لجمع من المجانين !

واسترعى انتباهَه صورة تتجلى فى صَدْرِ المدخل ، صورة تُمَثِّلُ الحجمَ الطبيعىَّ لفتاة فى لَبُوسٍ يحاكى زِىَّ الملاحين رُوَّاد البحار ، فما إن رآها الفتى حتى شَعَرَ بأن الدمَ يَصْبِغُ وجهَه بِصِبْغَةِ الخجل . إنها شِبْهُ عارية ، لا يكسوها إلا شُفُوف تُوهِمُ الناظر أنها تُغَطِّى ما اصطلح الناس على تسميته « مناطقَ الحَياء » ... أما سائر أوصال الجسد فقد تُرِكَتْ نُهْبَةً للعيون !

واستحالت حمرة الخجل فى وجه الفتى ، فصارت حمرةَ غضْبةٍ وَحَمِيَّة ، أو قل إن ذلك ما سَرَى فى وهمه . فردد فى نفسه :

يا لَلسَّوْءة ! . . . يا لَضَيْعَةِ الأخلاق !

وهَمَّ الفتى يجتذِبُ أنظاره ليردَّها عن هذه المَعَابِثِ الفاضحة ، فلم يجد له عَزْماً . . .

لقد تلاقت عيناه بعينى الفتاة ، فكان وإياها كالسمكة عَلِقَ بها شِصٌّ عَتِىٌّ ، وإن لم يكن يدرى : أيهما الشِّصُّ الناشب ، وأيهما السمكةُ المَصِيدَة ؟ !

وفيما كان الفتى يُعانى مجاهدةَ النفس ، للتفريقِ بين السمكة والشِّصِّ ، سمع صوتاً يقول له :

بخمسة قروش تستطيع أن ترَى هذه الفتاة واقفة تغنى وترقص . . .

بخمسة فقط ... هاكَ تَذْكِرَة... مقعَد حسن، منه ترى وتسمع بوضوح... لا تُضِع الفرصة . . . الليلةَ ختامُ المَوْسم !

فى هذه اللحظةِ شعر الفتى بأن وَعْيَه يتناقص ، وأن إدراكه يَغِيب . ما أشبَهه بالمريض قد مُدِّدَ على سرير الجِراحات، وقد بدأ يَنْشَق المُخَدِّر...

ليس فى مقدور الفتى أن يتابعَ لك حديثه فى تفصيل وتحديد ، فهو الآن فى غيبوبة شاملة ، وكأنه يَشْهَد أضغاثَ أحلام .

أنغام صاخبة ، أنوار كاشفة ، أصوات مُلْتَجَّة ، خَلْق يتزاحم هنا وهنالك، سحائب تتعقَّد فوقه من دخان وأنفاس . . . وفى وسط ذلك كله تتألق تلك الاختلاجة البشرية الراعدة، مثيرةً حولها رُوحاً من العربدة والهَوَس.

ولما فرغت الفتاة مما سَمَّوْه غناء ورقصا ، مدتْ يدَها إلى سَلَّةٍ فى جانب من المسرح ، مُلِئَتْ بورد قانىء كأنه الجمر ، وَهَبَطَتْ بالسَّلَّة إلى قاعة النظارة، فجعلت تقذِف بتلك الجمرات يَمْنَة و يسرة، والفتى إليها متطلع، يغشاه صمت وذهول ، على حين كانت الجموعُ متهافتة على هذه الجَمَرَات، تتلقفها لتضعَها على الصدور ، دانيةً من القلوب ، كى تزيدَها من ضِرام !

واستَبْقَت الحسناء فى يدها وردةً واحدة ، جعلت تدور بها فى بُهْرَةِ القاعة ، وكأنها مَنارة فى بَحْرٍ مَوَّاج ، يغشاه ليلٌ عاصفُ الريح . . .

فى هذا البحر المتلاطم تراءى زَوْرَق ضئيل ، تكاد تلتقِمُه الأمواج . وكان هذا الزورق يحاول أن يتماسك ، تفادِياً من الغرق ، وطلباً لشاطىء

الأمان ، وإذا النُّور يهبط نَسْجاً من الأشعةِ على الزورق ، فيجتذبه إلى قلب المنارة المتوقِّد ، ولا يلبث أن يغيِّبَه فيه .

تدانَتْ الفتاة من ذلك الفتى تَرْشُقُ على صدره وردتَها الأخيرة ، وهى تُحِيطُه بهالة من بَسَماتها اللِّطاف .

وأومأتْ إليه أن ينهضَ ، فأطاع .

ثم أشارتْ إليه أن يتبعَها ، فانقاد .

صَعِدَتْ الفتاة بالفتى إلى مِنَصَّةِ المسرح ، تختتم رقصتها الشادية ، على مألوفِ عادتها فى كل ليلة ، إذ تَعْمِدُ فى نهاية ما تعرضه من فنّها الأنيس إلى أن تصطفىَ أحدَ النَّظَّارة ، فتراقصه على إيقاع قوىّ من تهلل وتصايح ومِرَاح ...

وانسدل الستار ، لا كما ينسدل عادةً فى كل ليلة على هذه المَشَاهدِ من الرقص والغناء ، وإنما انسدل الليلةَ على عهد لهذا الفتى ، فقطع الصلة بينَه وبين ماضيه ، وانحدر به إلى عهدٍ من الحياة جديد .

كان أولَ ما استقبل به الفتى حياتَه الجديدة أنه رأى الفتاة الحسناء تعاجله بقَرْصة فى خده ، وعلى شفتيها تُصَلصل الضحكات ، وَمِلْء عينيها لَهَب تتطاير منه نظرات منهومة جَيَّاشة !

وتقدمَتْه ، وقد أرختْ له يدَها ، فتعلق بها . . .

وإذا هى تمضى به تَيَّاهةً تتخطر !

ولمس الفتى بيمينه الوردةَ الحمراء على صدره ، فانتزعها ، وجعل يتوسَّمها ، ولمعت فى خاطره قصة « التفاحة الخالدة » التى التهمها « آدمُ » فى جنة الخُلْد . وتراءت له الوردةُ الحمراء ، وكأنها تلك التفاحة فى شكلها وصبغتها وما لها من أريج . . فابتسم ، وقد عَرَته من النَّشوة هِزَّة !

هذا أبوه الأولُ « آدمُ » لم يتمنَّعْ على التفاحة حين عَرَضَتْ له ، فكيف للفتى أن يكون هو المتمنِّع الأبىّ ؟ أوَليس هو بآدمىّ ؟ !

وألفى الفتى خُطاه تُجاهَ حجرة أنيقة . . .

وما هى إلا أن غَيَّبه الباب فيها ، مع حَوَّائِه الحسناء !

ماذا أنتَ طالبٌ إلىَّ أن أقصَّه عليك بعد الذى قصصتُ ؟

إن هى إلا فُضالات وقُشور . . .

إن هو إلا حَشْو ليس له فى مَجْرَى حياة الفتى كبيرُ شأن . . .

على أنى أُوثِر ألا أتركَ فضولك على ظمإ ، فاعلم أن ما كان من أحداث عُمْر الفتى يمكن إجمالُه على هذا النحو :

أحسَّ الفتى بأنه كأنما أُلقِىَ به فى أَتُونٍ يتضرَّم ، وَقُودُه أصناف من خلق الله يتفاوتون طبقات ودرجات ، كانوا جميعاً يضطربون حيناً فى هذا الأتونِ ، ثم تستحيل شُخُوصهم حَفْنَةً من رَماد ، وإذا بِجَارُوفٍ يقتحم فى القَيْنة بعد القينة جَنَبَات الأتُّون ، فيمتلىء بهذا الرَّمَاد الهامد ، ولا يلبث أن يَدْفَعَ به فى مَرْمَى القُمَامات ... فى ذلك التلِّ المنبوذ !

وشعرَ الفتى يوما بأن الجارُوفَ يحتويه . . . يحتويه قَبْضَةً من رماد لِيُلْقِيَ بها فى المَرْمَى البعيد !

واستقرَّ بالفتى مصيرُه ، يتقلب على سَفْحِ هذا التل المنبوذ ، مستكيناً لذلك المصير .

ويتصفَّحُ الفتى ، فى الحين بعد الحين ، سوالفَ أحداثه ، ومواضىَ أيامه ، منذ كان يُسَمَّى إنساناً سَوِيًّا له عقل ورُوح ، إلى أن استحال حَفْنَةً مهملة من الرماد الزَّرِىّ ، فتتراءى له على الفور هذه « الحصاة » . . . فَتَسْرِى فى حُطامه رِعْشَة يتناثر بها رَمَادُه ، ثم إذا هو يتجمَّعُ ويتكمش فى مُسْتَقَرِّه الأخير !

وَرقة النَّصيب

فى « قهوة الأفندية » بِحَىِّ « الحُسَيْن » ركن اصطلح عُمَّارُ القهوة على تسميته بركن « سيد أفندى » ... فقد كان وَقْفاً عليه ، ظل يختلف إليه قرابَةَ عَشْرِ سنين .

ولم يكن أحد تحدِّثه نفسه بأن يزاحِمَ « سيد أفندى » فى ركنه ، فإن الرجل كان موضعَ احترام الناس ، لما تَمَيَّزَ به من شمائلَ رِقاق ، ولما عرفوه عنه من انتسابه إلى بيت كريم العنصر ، وإن عَبِثَتْ به تصاريفُ الزمن الغَدُور .

ينتسب « سيد أفندى » إلى أسرة لها فى شئون التجارة قدم راسخة ، وقد كان لِمَتْجَرِها فى « الحمزاوى » صِيت بعيد ... أيامَ كان « الحمزاوى » مِحْوَرَ التجارة فى العاصمة .

على أن المَتْجَر جعل يتضاءل ويخبو على مرّ الأيام ، حتى انتهَى إلى « سيد أفندى » وهو فى درجة من الهُزال تنذر بالزوال ، فلم يستطع « سيد أفندى » أن ينتشلَه مما هو فيه ، ورأى خيراً

له أن يتخلصَ منه بالبيع، وأن يقنَع بما بقى له من عَقار يُدِرُّ عليه ما يكفُل له عيشة قانعة ، وييسّر عليه أن يحيا فى هدوء وسكينة ، ينعَم بذلك الركن الطيب فى « قهوة الأفندية » .

كان « سيد أفندى » يُوَافِى ركنَه فى الأصيل ، فلا يَرِيمُه إلا بعد أذَان العِشاء ، يقضى وقتَه فى تَرَاخٍ وتثاؤب ، حتى يهبِط عليه بعض السُّمَّار ، فيطارحهم لَغْوَ الحديث .

وفى أصيل يوم ، قَدِمَ « سيد أفندى » على القهوة ، يَخُبُّ فى جلبابه الصوفىّ البلدى ، متأبطاً رِزْمَةً من صُحُف اليوم ، وهو يُمِيل طربوشه على فَوْدِه ... وسلك طريقه إلى ركنه ، وهو يحيِّى من يراه من الأصحاب ، تعلو فمَه ابتسامته المألوفة ، وإن كانت فى هذه الساعة يمازجُها لون من التكلف ، ويغشاها ظل من الكآبة والاغتمام .

وما لبث « سيد أفندى » أن اتخذَ مجلسَه فى ركنه المألوف ، ثم نادى فأَوْصَى بالشاى والنارجيلة ، وبسط الصُّحُف يحاول أن يُسَرِّىَ عن نفسه بقراءة الحوادث والأخبار .

وهكذا شرع يُمارِسُ ما أَلِفَ من عمله ، يَقْلِبُ صفحةً من أيامه المتكررة المتشابهة !

وبينما هو يَرْشُفُ من قدح الشاى إذْ جاز به بائع أوراق النصيب ،

ذلك الغلام المعهود فى تلك البقعة ، فما إن اقترب منه يَعْرِض بين يديه أوراقه ، حتى زَجَرَه « سيد أفندى » مُخْنَقَ النفس ، وهو يقول له :

هل عَهِدْتَنِي أشترى هذا الورق ؟ لِمَ تضايقنى ؟

فقال له الغلام :

عندى أوراق « جمعية الرفق بالإنسان » ، وهى جديرة بالشراء ! ... الكَسْب ألفُ جُنَيْه ... أوراق مضمونة كالذهب !

فازْوَرّ عنه الرجل ، مُقَطِّبَ الجبين ، وهو يقول :

اختَرْ غيرى ، فألقِ على سمعه هذا الهُرَاء ... اُغْرُبْ عن وجهى !

وأقبل على قدح الشاى يترشَّفُه ، وانثنَى الغلام إلى رُفْقَةٍ عن كَثَب من ذلك الركن ، وجعل يغريهم بقوله :

الكَسْب ألْف جنيه ... لم تبق إلا ورقات ثلاث .. السحب غداً ... الورقة ثمنها خمسة قروش فقط ... جرِّبوا حظكم قبل أن تطير الفرصة !

وطَفِق الرفاق يحاورون الغلام ويفاكهونه ، وهم يتداولون ورق النصيب ، والغلام مسترسل فى حديثه ، يلوك جملةَ الألف جنيه ويؤديها على أوضاع شتى .

وهَمَّ « سيد أفندى » بأن يَمْضِيَ فى قراءة صحيفة المساء ، ولكنه ما أسرع أن طواها .

إن مبلغَ الألف جنيه الذى يَرِنُّ به صوت الغلام قد غزا مناطق تفكيره .

وضاق « سيد أفندى » ذَرْعاً بما يدور فى مجلس الرِّفاق من محاورات فى شأن ورق النصيب ، فرماهم بنظرة تَجَلَّى فيها الإستخفاف والإصغار .

بَيْدَ أنه على الرغم من ذلك لم يلبث أن تراءتْ له فى أفق خياله عشر ورقات مالية تزهو بلونها العُنَّابىّ ، وقد برز فى كل ورقة منها رَقْم مائة جنيه !

لا أَحَدَ ينكر أن مبلغ الألف جنيه مبلغ جدير بالاعتبار . . . به يستطيع مأزوم أن يَخْلُصَ من ضائقته ... مأزوم مثل « سيد أفندى » الذى تحاصره أقساط جاء أجلُها ، وهو اليوم يحملها هموماً ثِقالا .

وعادت يده تنساب إلى الصحيفة ، يحاول أن يَتعَلَّل بمطالعة ما فيها من أخبار .

وأحسَّ بأن جيرانه قد اشْتَرَوْا من ورق النصيب ، فمدّ إليهم بصره يتثبت ، وهو مُحْنَق يهمهم بالإزراء ، فأقبل عليه فى هذه اللحظة

« متولى أفندى » وهو شابّ موظَّف لامع الفِطْنة ، ذلِقُ اللسان ، يُحْسِنُ التحدُّث فى شئون المجتمع المصرىّ .

وكان « سيد أفندى » يأنَس به على ما بينهما من اختلاف فى المشارب والأذواق ، فما إن استقر به المقام حتى هتف « سيد أفندى » بأَحَدِ النُّدُلِ يطلب لجليسِه الشاى .

ثم مال على « متولى أفندى » يقول له ، وهو يشير إلى جيرانه :

عجباً لأولئك الذين ينفقون أموالهم فى هذه السخائف !

فالتفت « متولى أفندى » حيث أشار رفيقه ، وما عَتَّمَ أن أومأ إلى الغلام الذى يبيع أوراق النصيب ، فدعاه إليه .

وَزَوَى « سيد أفندى » ما بين عينيه ، وهو يقول :

ماذا أنت فاعل ؟

فابتسم « متولى أفندى » مُجِيباً بقوله :

أجرِّب حظِّى .

— لم أعهدْك من أولئك النفر الذين ينصاعون لتلك الأضاليل .

— حقًّا لستُ من مدمنى شراء أوراق النصيب ، ولكنى أمتحن حظى بين حين وحين .

— وهل ظَفِرْتَ بكسب ؟

— كسب غير قليل ...

وجاء الغلام طَلْقَ الأسارير ، متحمساً فى الإغراء بالشراء ، فاشترى « متولى أفندى » ورقة ، وما لبث أن أودعها جيبه .

فقال له « سيد أفندى » :

لقد أضعتَ نقودَك ...

— كلا ، لم أُضِعْها ... إذا لم أَكْسِبْ فإنى أَعُدُّ تلك النقود تبرعاً منى لتلك الجمعية التى تعمل الخير .

— كان أجملَ أن تتبرع بما تريد التبرعَ به للجمعية ، دون أن تشترى ورقاً .

— ولكنى إذْ أشترى الورق ، أُداعب حظى ، لعله يستجيب .

— إنها مقامرة ... ولا تنسَ أن المقامرةَ حرام !

وكان الساقى قد أقبل بصينية الشاى ، متبرجة بأكوابها الملوَّنة ، يتضوَّعُ منها العِطْر .

فَطَفِقَ « متولى أفندى » يملأ قدحه ، وهو يقول مبتسماً :

أنتَ تُلْقى القول على عواهنه ، وما يجوز لك أن تُقْحِمَ التحريم والتحليل فى مثل هذه الشئون ، فالمعوَّل على النيات . وما دامت نياتُنا صافية ، وأغراضنا شريفة ، فلا داعىَ إلى التعسير ، والدين يُسْر .

وانثنَى إلى قدحه يَرْشُفُ منه ، ثم استأنف يقول :

إنى أومن بهذه المؤسسات الخيرية التى تُصْدِر أوراق النصيب ، فهى قائمة على فكرة اجتماعية طريفة ، فكرة التعاون .

فأرسل « سيد أفندى » قهقهة ساخرة ، وهو يقول :

أىُّ تعاون هذا ؟

— إنه تعاون لا رَيْبَ فيه ، فهذه الجمعيات الخيرية التى تُصدر ورق النصيب وتَعْرِضه للبيع ، والجمهور الذى يشترى هذا الورق ، إنما يشتركان فى إسعاد بعضهم بعضاً ، ويتعاونان على أن يتبادلا نفعاً وجَدْوَى ... أنا إن ربحتُ مبلغَ الألف جنيه الذى أنا أحوج ما أكون إليه لتحسين حالى ، فكأن هذا المبلغ اكتتبَ به لى أولئك الذين اشترَوْا الأوراق ، دون أن يلحَقَهم فى ذلك رَهَق ولا إعنات .

— هيهات لك يا «متولى أفندى» أن تُقْنعنى بهذه الفلسفة العَرْجاء ! إنى مقتنع بأن فكرة ورق النصيب لا تعدو أن تكون احتيالاً .

— سَمِّها ما شئت ... قل إنها احتيال ... ولكنه احتيال شريف ... احتيال مفيد !

فصاح « سيد أفندى » :

أَثَمَّةَ نوعان من الاحتيال ؟ الاحتيال هو الاحتيال . . . شرٌّ كلُّه !

فابتسم « متولى أفندى » ونظر إلى صديقه نظرة إشفاق ، ثم قال :

ألم يَسْبِقْ لك أن اشتريت يوماً ورقة نَصيب ؟

— كلا . . . وهل أنا مخبول حتى أجازفَ بمالى فيما لا ينفع ؟

فَرَبَّتَ « متولى أفندى » كتفَه قائلاً :

هذا عيبك !

— أتسمِّى هذا عيباً ؟

— أنتَ رجل هيَّاب . عيبك الكبير هو أنك تُجْفِلُ من المغامرة .

— إنى بحالى هذا لَجِدُّ سعيد .

— أنت تغالط نفسك . . . لستَ بحالك سعيداً . . . لو كنتَ غامرت فى حياتك شيئاً لكنتَ اليوم أسعدَ حالاً .

— المغامرة نَذِيرُ الخراب !

— من لا يغامر فى الحياة يا صديقى لا يشقُّ أُفقاً . . . اعترف لى : أزاد دَخْلُك منذ قمتَ على مالك ؟

فَأُرْتِجَ على « سيد أفندى » وزاغ بصره ، وراح يهمهم فى اختلاط . وواصل « متولى أفندى » قوله :

سأجيب بلسانك . . . النفقات تزداد ، ورأس المال يتناقص . . . لو كنتَ على نقيض ما أنتَ عليه لجعلتَ من مَتْجَرِك القديم مَتْجَرًا يستردُّ مكانته ويزهو فى عهد جديد .

فشمل « سيد أفندى » صمت وسهوم ، وحاصره انقباض ، وغمغم :

الحمد لله على كل شيء . . . أنا راض بحالى !

— القناعة . . . تقصِد القناعة . . . ما أقساها من فضيلة !

فحملق « سيد أفندى » فى وجه جليسه ، وهو لا يدرى : أمُعْجَبٌ هو بقوله ، أم ناقم عليه ؟

ولم يلبَثْ أن همهم :

دَعْنَا من هذا الحديث !

وأقبل على المجلس بعضُ الخُلَّان ، فخاض الرِّفاق فى أحاديث شتى لم يشترك فيها « سيد أفندى » إلا بِقدَر ، وكان يبدو كأنه شارد الخاطر ، مشغول الفكرِ بطارئٍ من الأمر .

ولما انقضت جلسة العَشِيَّة نهض الرجل متثاقلَ الخطا ، يَؤُمُّ داره واستقبلته ساحةُ « الحُسَيْن » يسير الهُوَيْنى ، وقد ذهب به التفكير كل مذهب .

أتراه حقًّا قد أضاع فُرَصاً ما كانت لتضيعَ لو غامر وخاطر ؟

إنه ليتمثل حانوته الصغير ذلك الذى جَرَّ عليه الزمن ذيلَ العفاء ، وقد غدا متجَراً كبيراً تسطَع على جبينه الأنوار الكهربية السيَّالة ، وبين قاعاته يموج الناس موجاً ، وأمام الخزانة تتدفَّق الأموال ، لا يَنْضُب لها مَعين ... فأما هو فإنه يحيا فى رخاء وتَرَف ، لا تقتيرَ ولا حساب ، ولا مأزِقَ كالذى يعانيه اليوم : ينغِّص عليه عيشه ، ويُسْلِمُه إلى غَمٍّ وقُنُوط !

وتابع السير ، و إذا بعينيه تتصيدان كُومَةً على الطَّوَار ، و إذا هى غلام أوراق النصيب ، يُهَوِّم برأسِه . فألقَى « سيد أفندى » قدميه تتمهلان ، ونظره لا يبرح الطَّوَار .

وشعر الغلام بأن شخصاً عن كَثَب منه ، فانفتل قائماً ، ينفُضُ عنه فُتورَ المنام ، وأقبل على « سيد أفندى » يعالج القول فى حَذَر ، و يُدْنِى منه ورقة فى يده :

إنها آخر ورقة ... ليس معى سواها ... الحظ من نصيبك حتما . . خمسة قروش تعطيك ألف جنيه !

وَتَرَيَّثَ « سيد أفندى » يتأمل الورقة فى يد الغلام ، فرأى الغلام فى ذلك ما يُشَجِّعُه على التقدم والمَزِيد من القول والإغراء .

وألقَى « سيد أفندى » يده تَدْلِف إلى جيبه ، وتَخْرُجُ بخمسة قروش ، وسُرعان ما دسَّها فى يد الغلام ، واجتذب منه الورقة ، وهو يجمجم :

لولا ما أنتَ فيه من فقر ومَسْكَنَة لما اشتريتُ الورقة منك ... فليكن هذا المبلغ مِنْحَة لوجه الله !

وطوى الورقة ، ثم غيَّبَها فى جيبه ، واستأنف سيره ، حثيثةً خُطاه .

وما إن اُحْتَلَّتْ هذه الورقة السحرية جيبَ « سيد أفندى » حتى تبدلت حاله .

قلق طارىء .

ذهن شَرُود .

الأوراق العُنَّابِيَّة تتراقص أخيلتها قُبالَةَ عينيه .

نوبات تتوارد عليه من تبكيت الضمير .

كيف سَوَّغَتْ له نفسُه أن يمدَّ يده إلى هذه المقامرة النكراء ؟

وآلَى على نفسِه لَيُمَزِّقَنَّ الورقةَ شرَّ ممزَّق . ولكنه لم يملِكْ أن يفعل .

وما إن بلغ داره واستقرَّ به المقام ، حتى قُرِّب إليه الطعام ، ولكنه لم يجد من شَهِيَّتِه إقبالا ، فلم يُصِبْ منه إلا قليلا .

وأَوَى إلى فراشه ، يطلب النوم ، فكأنما كانت فى انتظاره عجائبُ أطياف ، وأضغاثُ أحلام .

كُومَات من الأوراق المالية مكدَّسٌ بعضُها فوق بعض ، تُحْدِقُ بها ألسنة من لَهَب ... وهو يحاول أن يقتحم سِيَاجَ النار ، لِيُنْجِيَ الأوراق من الحريق المحتوم ، فلا يستطيع !

وقضى الرجل ليلةً ليلاءَ ، جَثَمَتْ فيها على صدره هموم ثقال .

وانتبه من نومه صُبْحاً ، فأسرع إلى الطريق .

وأمضى سُوَيْعاتِ الضُّحَا يتنقَّلُ بين المتاجر ، يزور عارفيه ، كأنما يَهْرُب من يومه ، ويتعجَّلُ غده ، فهو يلتمسُ إزجاءَ الوقتِ بكل سبيل .

وكان لا يفتأ يسأل فى مُساترة ولباقة عن موعد إعلان النتيجة فى شأن أوراق النصيب ، وَيَتعرَّف المكان الذى يُسْتَقَى منه الخبر اليقين ... وقد

ألْفَى خطاه تنفرط إلى هذا المكان ، فوقف يرقُبه عن كَثب منه ، فإذا به أمام ظُلة وضيعة فيها مِنضَدَة مُلِئَتْ أوراقاً ، وقد انكبَّ عليها رجل هزيل نحيل ، أكبر ما فيه أنف يتدلى عابثاً بهذه الأوراق .

وفى ضَحْوَةِ غده قَدِمَ على تلك الظُّلَّة ، ومَثَلَ أمام الأنف المتدلِّى ، وهو مهتاج النفس ، لا يَملك لأوصالِه من قَرار .

وتثاقلت الدقائقُ فى سيرها ، و « سيد أفندى » ماثل ينتظر .

وأخيراً تَسَلَّم كشف الأرقام ، راجفَ الأصابع ، زائغَ النظرات .

و بعد مراجعة وتحقيق ، أيقن « سيد أفندى » أنه قد خَسِر قروشه الخمسة .

فترك الظُّلَّة ساهماً يجفف عرقه ، ولكنه أحسَّ طارئاً من الراحة يسرى بين جوانحه : راحة الخلاص من تلك الحيرة وذلك القلق ، راحة الوصول إلى رأى حاسم بين مختلِف الظنون والأوهام .

وتراءت على مُحَيَّاه ابتسامة . . .

ما كان أعجبَها مغامرةً سخيفة ، نقلتْه يوماً و بعضَ يوم من هدوء وطمأنينة إلى جحيم من القلق والِاضطراب !

إنها جحيم حقاً ، ولكنه لا يستطيع أن ينكر ما لهذه الجحيم من طرافة ، وما فيها من خروج على الراتب المألوف الذى يَتَمَثلُ فيه الجمود والخمول .

وألفَى نفسَه يُطلِقُ ضِحْكَةً عالية ، وهو يدفع بقدميه فى الطريق .

وفيما هو يسير ، لمحتْ عيناه بعضَ من يطالبونه بالديون ، فتنكَّبَ عن طريقهم ، وتجنب لقاءهم ، وظَفِر بالفرار .

لو كان الحظ قد واتاه لأخرس هؤلاء المتبجِّحين ، ولرفع رأسه أمامهم عالياً غيرَ صاغرٍ ولا هَيُوب .

ولكن هذه الأوراق العُنَّابيَّة المنشودة طارت من أُفُقِ خياله ، وخلّفته رهينَ ضائقته ، لا يجد منها بَرَاحا .

مهما يكن من أمر ، فقد أبى الله له أن يكون تفريج ضائقته بوسيلة بغيضة ليست إلا ضرباً من احتيال مشروع !

وجاء الأصيل ، فَعَجِلَ « سيد أفندى » إلى ركنه فى «قهوة الأفندية» على مألوف عادته ، وفجأةً علتْ ضجة من حوله ، وما أسرع أن استبان له أن أحد رُوَّادِ القهوة هو الذى ظَفِرَ بالغنيمة من ورق النصيب !

وشَعَرَ « سيد أفندى » بضيق ، وألفى نفسَه يهمهم :

هذا كَسْب حرام ... لا يبارك الله فيه ... لقد حمانى الله منه !

وما هى إلا أن وافَى القهوة « متولى أفندى » فأقبل على جليسه جيّاش الخاطر ، قائلا :

هأنت ذا ترى كيف ربح جارنا ورقة النصيب ، وظَفِرَ بالغُنْمِ العظيم !.. لو كنتَ لنصحى سميعاً لكان الربحُ منك دانىَ المَنَال !

فبادره «سيد أفندى» بقوله :

هل لك فى أن نلعب بالنَّرْد ؟ ... هذا خير لنا من لَغْوِ القول !

وشرعا يلعبان ... ولم يَغِبْ عن فطنة «متولى أفندى» أن جليسَه يتابع اللعبَ على مضض وتكلف ، فصاح به :

أقترح أن نلعبَ على رِهَان . . . ولتكن الرِّهان قليلا من النقود . . . حتى لا يكون اللعبُ فاتراً كَسُولا ... نحن نلعب إيقاظاً للمشاعر ، وإثارةً للنفس ، ولا يتم ذلك إلا حين يكون للعب غَرَض ، وللغلبةِ غُنْم .

فرفع «سيد أفندى» يده ، قائلا :

هيهات لى أن ألاعبَك على نقود ، مهما تكن قلائل .

قال الرجل ذلك ، وقد طاف بمخيِّلَته ذلك الإحساس الذى استبدَّ به وقتاً عصيباً منذ الساعة التى اشترى فيها ورقة النصيب ، إلى اللحظة التى عرف فيها أنه لم يظفر بشىء !

لقد قضى هذا الوقتَ فى ثورة نفسية عارمة ، شَدَّ ما أتعبَتْه ، ولكنه على الرغم من ذلك يعترف بأنها أهدت إليه نَشْوَةً ليس له بها عهد . . . نشوة اليقظة والاهتياج !

وانفضَّ مجلس العَشِيَّة ، فترك «سيد أفندى» القهوة ، ولما جاز بذلك الجار المحظوظ الذى كان له الظفر بالورقة الرابحة ، رمقه بنظرة شَزْراء !

وترادفت الأيام على «سيد أفندى» أشبه ما تكون بكتاب يقلِّب من صفحاته المكررة المعادة ، لا جديدَ فيها إلا اشتداد الضائقة المالية به ،

واجتماع الدائنين عليه ، وتهديدهم إياه باتخاذ إجراءات الحجز والتنفيذ .

ويومًا لاح فى القهوة غلام النصيب ، يحمل رِزْمَةً جديدة من الورق لموعد جديد ، وهو يتغنى بالأرباح والغنائم ، إغراء للرُّوَّاد بالشراء ...

وجاز الغلام بـ « سيد أفندى » فى ركنه المعهود ، فما كاد يدانيه ويبسط أمامَه الأوراق ، حتى وجد «سيد أفندى» نفسَه يمدُّ يده إلى العصا متوعداً بها ذلك الغلامَ الجرىء المِلْحاح ! ... فقفز الغلام لائذاً بالهَرَب ، ولكن «سيد أفندى» جعل يتابعه بنظره ، وهو يتنقل فى أرجاء القهوة يوزع الورق ويقبض النقود .. وكان « سيد أفندى » فى أثناء ذلك مكتئب النفس ، عَبُوسَ الأسارير !

وانقضت السهرة ، وابتغى «سيد أفندى» داره ، وهو يجرجر قدميه ، ويغالب فى نفسه طارئاً من المشاعر ...

وما إن شارَف الدارَ ، حتى ألفىَ نفسَه يعود أدراجَه ، وهو يحدث نفسه بأن يقصِدَ مسجدَ « الحُسَيْن » يؤدى صلاةَ العِشاء !

ولبث يجتاب منطقةَ المسجد ، كأنه يبحث عن شىء ... وأخيراً وقع بصره على الكُومَةِ بجوار حائط ، فتلكَّأ فى سيره ، وجعل يتنحنح .

وتمخضتْ الكُومَة عن الغلام ناهضاً يداعبه الأمل فى بيع ورقة مما يحمل ... وتقدم حَذِرَ الخطوات ، وقد بسط الأوراق أمام «سيد أفندى»

فاجتذب الرجل منها ورقة ، وقذف بالنقود فى وجه الغلام ، ثم حث خُطَاه إلى البيت لا يَلوى على شىء ! . . .

إنه لَيَعْجَب لذلك الباعث الجديد الذى ملك عليه أقطار نفسه .

إنه ليحس هَيْجَةً من الطرب تملأ ما بين جوانحه .

إنه لَيُقْبِلُ على الطعام فى شَهِيَّة ، ويلاعب أطفاله على المائدة فى رحابة صدر .

وانقضت ليلته ، والأوراق العُنَّابية العشر تتراقص فى خاطره ، مختلفة الأشكال والأوضاع .

وتواردت أيام على الرجل ، وهو يترقب اليوم الموعود ، يومَ إعلان الأرقام الرابحة من أوراق النصيب .

وضَحْوَةً ألفىَ نفسَه عند الظُّلَّة المعهودة . ماثلا تُجاه الأنف المتدلِّى ، وتناول كشف الأرقام ، وأقبل يستجلى حَظَّه المَطْوِىّ ! . . .

وواجهه ، أولَ ما واجهه ، رَقْم الورقة التى يملكها !

إنه فى رأس القائمة !

لا يكاد يصدق . . .

ونظر إلى الورقة فى إحدى يديه بِجُمْع عينيه ، والتفت إلى الكشف يقابل الرَّقْم ، وهو يحس بأن قلبه مُوشِكٌ أن يَطْفِرَ من بين الضلوع .

ونَدَّتْ منه صرخة ، وكاد يتهاوى ، لولا أنه تمالك وتماسك ، واعتمد على إحدى قوائم الظلَّة .

وصاح بالأنف المتدلى ، وبمن اجتمع حول الظُلَّة من الناس ، قائلا :

أنا صاحب الرَّقْم الرّابح ... أنا رابح الورقة الأولى !

ونهض ذو الأنف المتدلى من فوره يرحِّب بالمحظوظ السعيد ، وسرعان ما قدَّم له مقعداً ، وهو يُميطُ عنه الغبار .

وتحركت يداه يصفِّق ... وجأَرَ مناديا غلامَ القهوة المجاورة لِيُحْضِرَ للضيف الكريم ما يَرُوقُه .

وهدأت الثورة فى نفس « سيد أفندى » وملك زمام أمره ، فانكشف له أنه فَرَطتْ منه هَنَات لا تليق به أمام ذلك الجمع الذى تكاثر عليه حين انطلق صوته !

وأخذ صاحب الأنف المتدلى يشرح لضيفه : كيف السبيل إلى تسليم الورقة الرابحة ؟ وكيف الحصول على ما غَنِمَتْ من مال ؟

وما لبث أن اتفق مع ضيفه على أن يرافقه ، لينفعَه بخبرته وتجربته فى تيسير الإجراءات .. ولم ينس أن يذكِّر صاحبه فى ملاطفة وملاينة بما هو أهلٌ له من مِنْحَةٍ طيبة سخية !

وانصرف «سيد أفندى» فى مَعِيَّةِ الرجل ، ورأسه كأنه أتُون يتأجَّج ... انقطع « سيد أفندى » عن القهوة أياماً ، فعكف على اتخاذ الخطط

ورسم البرامج ، وهو لا يفتأ يَعُدُّ الأوراق المالية فى صباحٍ ومساء ...

وتسامع الناسُ بنبإ هذا الكَسْب الذى أصابه الرجل ، فزاره صديقه الحميم «متولى أفندى» وهنأه على جُرْأته ، وجعل يُدِلُّ عليه بأنه هو الذى شجَّعه على المغامرة والاقتحام ... فأكد له «سيد أفندى» أن الأمر لا يعدو أن يكون تدبيراً من الأقدار ليس لأحد فيه إصْبَع ، وأنه سوف ينفق هذا المال الجديد فى وجوه البر والخير .

وكان « سيد أفندى » بعد ذلك لا يكاد يجلس فى ركنه من القهوة ، حتى يتهافتَ عليه غِلْمان أوراق النَّصيب ، يَعْرِضون ماعندهم من مختلف الأصناف ، فلا يردُّهم الرجل ، بل يأنَسُ بهم ، ويَبَشُّ فى وجوههم ، ويجاذبهم أشتات الأحاديث ، ثم يشترى مما يعرضونه مَثْنَى وثُلَاثَ ورُبَاعَ !

وطال تَرْدَاد « سيد أفندى » إلى الظُّلَّة المعهودة العامرة بالأنف المتدلِّى يتعرَّفُ الأرقام الرابحة ، ويتفهَّم دخائل الجهات التى تُصدر أوراق النصيب ، حتى أصبح بصيراً بهذه الشئون ، وصارت الظلَّة مَثَابةً حبيبة إليه ، يستجيب لها ما وَسِعَه أن يستجيب !

وعاش « سيد أفندى » هذه الحِقْبَةَ من حياته تسرى فيه نشوة الترقب ، وتعتلج بين جوانحه حَمِيَّةُ الانتظار ، فلم يعد النهار يمرُّ به طويلَ الذيول ، ضافىَ الساعات ، يقضيه فى تثاؤب وتراخ .

وكان من تدبير القَدَر الخفىِّ أن يستلين الحظ لـ « سيد أفندى » وأن

يألفه ، فواتاه فى الفينة بعد الفينة بكَسْب تفاوَتَ قلةً وكثرة ، ثم سخا له يوماً بِغُنْمٍ ليس باليسير ... فآمنَ الرجل بحظِّه ، وتوضح له بذلك منهاجٌ فى الحياة جديد .

ما أعجب أسرارَ القَدَر !

أتُرَاهُ قد رتَّبَ لـ « سيد أفندى » تلك المصادفات ، لينهجَ به مسلكا معيَّناً ينتهى به إلى غاية مرسومة ؟ !

وشوهد الرجل بعد ذلك لا يلعب النَّرْدَ مع صديقه « متولى أفندى » إلا على رِهان موفورة ...

يا لها من جلسات صاخبة حامية !

إن « سيد أفندى » فى تلك الجلسات غيرُه بالأَمْسِ .

لقد وَدَّع السكينة والهدوء ، وأصبح الآن يرقُب اللعب بعين متنمِّرة ، ووجه متقلص ، وأوصال مستوفزة .

ولم تلبث تلك الجلساتُ أن اجتذبتْ إليها أنظار رُوَّاد القهوة ، وأصبحت ذائعة الصيت ، مشهوداً لها بعلوّ الشأن .

ولم يكن بُدٌّ من أن تزدادَ الحِدَّةُ بين الصديقين فرَسَى الرِّهان ، حول منضدة اللعب ، وأن تنقلب إلى ضراوة وشراسة ، أعقَبَتْها عداوة وشحناء ، فإذا الصديقان يفترقان إلى غير مُلْتَقًى !

وتضرَّمَتْ مشاعر « سيد أفندى » ، فطلبت المَزِيدَ من الوَقُود .

إن تلك المشاعر التى لبِثَتْ دهراً طويلا تحت أثقال السُبات والخمول، تعانى الكَبْت والضغط، لم تكد تحسُّ الفُرْجَةَ من هذا الضيق، حتى انطلقت وقد استبدَّ بها السُّعار.

لا غَرْوَ إذن أن يأخذَ «سيد أفندى» طريقه إلى ساحات السِّباق، يصول فيها ويجول.

وتفتقت فطنته، وتوهجتْ بصيرته، فما أسرعَ أن أصبحتْ له خِبرة لا تعدِلُها خبرة فى شئون السباق، وبرزت شخصيتُه بين قُصَّادِ هذه المجامع، فصار فيها عَلَماً من الأعلام . . . !

ولم يكترث «سيد أفندى» بما يَظْفَر به من كسب، وما يُمْنَى به من خَسار . . . كانت النقود فى حركة دائبة من يده إلى جيبه، ومن جيبه إلى يده، لا يَقَرُّ لها قَرار!

وعلى الرغم من أن الأوراق المالية كانت كثيرة الإنسياب بين يديه، فإنه كان يحسُّ أثقال الديون تتعاقبُ على كاهله، بيد أنه لم يكن يجدُ لذلك فى نفسه كبيرَ اهتمام.

إنه فى شُغُلٍ شاغل بهذه الحياة الصاخبة الزاخرة بألوان المضاربات التى تثير المشاعر، فهو يمارس أنواعها وضروبها ما وَجَدَ إلى ذلك السبيل.

وَمِنْ ثَمَّ لم يكن بُدٌّ من أن تتقاذفه أندية القِمار، وأن يقضىَ حول

مناضدها لياليه ، ولا يتركها إلا وقد أحسَّ وطأة التعب تَنهَك أعصابه ، وتفتّت أوصاله .

شَدَّ ما دفعت الأقدار بـ « سيد أفندى » فى ذلك التيَّار الجارف .

إنها لتقذف به فى تلك الموجة الدَّوَّامة ، فهو يدور فيها ولا يفتأ يدور ، ولا يعرف لدورانه مُنتَهَى ، ولا يرى أمام عينيه شاطِئَ خلاص !

أكان فى مستطاع « سيد أفندى » — وهو رهينُ ذلك التيَّار العارم الفوّار — أن يستنقذ لنفسه أَثَارَةً من شمائله الغابرة ، شمائلِ الدَّعَة ودماثة الطبع ؟

لقد أصبح الرجل اليومَ شديدَ المراس ، حديدَ المِزاج ، سريع الغضب ، غليظ القول ، حتى فى مَعَارِضِ الدُّعابة والمُزَاح ! . .

وليلةً وهو يقظانُ يلعب فى ناد من أندية القمار ، شربَ حتى أَثقَلَ ، وملكته نَوْبَةُ اللعب ، فهاج وماج ، وجعل يَشْغَب على الرفاق . وكان من جَرَّاء ذلك أن قامت معركة بينه وبين غَرِيم له ، وإذا بـ « سيد أفندى » يقذفه بزجاجة شَجَّتْ رأسَه .

وبات « سيد أفندى » فى المَحْبِس بقيةَ ليلته ، وأتاه النبأ صبحاً بأن غريمه قد أَوْدَتْ به جِراحُه .

وبدأ الرجل طوراً جديداً من أطوار حياته .

عشرة أعوام قضاها حليفَ السجون ، عشير الجُناة الآثمين .

وَصَدَرَ عن السجن ، بعد أن عَلِقَتْ بنفسه أدرانُ الإجرام .

ولعلك أن تزورَ يوماً مِنطَقَةَ « الحُسَيْن » وينتهىَ بك المَطَافُ إلى « قهوة الأفندية » ... ولو فعلتَ لما أخطأ بصرُك رجلاً بادىَ الزَّرَايَة ، وضيعَ الملبس ، يُقَلِّبُ فى النـاس نظرات كابية شَعْثَاء . ولـكن لا يُعْيِيكَ أن تستجلى تحت سِمات هذا الرجل أنقاضَ نعمة غابرة ، وبصيصَ كرامة غارِبَة !

إنه ليسوقُ رجليه سَوْقاً ، يمسح أنفَه بظَهْر يده ، وهو يجوس خلال المناضد ، يبسُط رِزْمةً من أوراق النصيب ، مُشِيداً بما تُفِيئُه على الناس من فضل عظيم ، وخير عميم !

فإذا ما كَلَّتْ قدماه عن السعى ، وجفَّ حلقه من المناداة ، انتحَى على الطَّوَارِ ناحيةً عن كَثَب من القهوة ، وتجمَّع بعضُه على بعض ، واعتمد بظهره على الحائط ، وألقى نظراتِه تَسْرُبُ إلى ذلك الركن العتيد الذى كان مَثابتَه المختارةَ بالأمس ...

ولا يلبثُ فمُه أن ينفرجَ عن ابتسامة شاحبة تنقُلُه إلى عالم الذكريات .

ثم إذا برأسه يُهَوِّم ، وبجفنيه يتراخَيَانِ !

فهرس

	ص
كل عام وأنتم بخير	٥
صراع فى الظلام	٢٩
مجنون	٥٥
الحكم لله	١٠٣
قبلة مرهونة	١١٩
فى ظلمة الليل	١٢٩
فى غفوة الأقدار	١٤٩
عروس من قطن	١٦٩
هذه الحصاة	١٩١
ورقة النصيب	٢٠٥

أحدث مؤلفات

محمود تيمور

- ملامح وغضون
- إحسان لله
- أبو الهول يطير
- حواء الخالدة
- كليوباتره فى خان الخليلى
- المخبأ رقم ١٣
- فن القصص
- قنابل
- فرعون الصغير
- عوالى
- أبو شوشة
- اليوم خمر
- خلف اللثام
- عطر ودخان
- سلوى فى مهب الريح
- شفاه غليظة
- نداء المجهول
- قال الراوى
- مكتوب على الجبين
- سهاد
- المنقذة
- كل عام وأنتم بخير

١٠١ / ت / ١٩٥٠

AL-MAAREF

1890

COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES

This book is due on the date indicated below, or at the expiration of a definite period after the date of borrowing, as provided by the library rules or by special arrangement with the Librarian in charge.

DATE BORROWED	DATE DUE	DATE BORROWED	DATE DUE
C28 (251) 100M			

893.79 T1363

893.79 T1363

Taimūr

Kull ʿām wa-antum bi-khayr wa-qisas ukhrā.

OCT 12 1951

BINDER
R-106

DEC 1

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE
CU58872787
893.79 T1363
Kull am wa-antum bi-